الجزاء

عناصر الموضوع

مفهوم الجزاء	٦٦
الجزاء في الاستعمال القرآني	٦٨
الألفاظ ذات الصلة	٦٩
أنواع الجزاء	٧١
قواعد في الجزاء	٩٩

مفهوم الجزاء

أولًا: المعنى اللغوي:

«الجيم والزّاء والياء: قيام الشّيء مقام غيره، ومكافأته إيّاه»[١]، وفلانٌ ذو غناءٍ وجزاء -ممدود-، وتجازيت ديني: تقاضيته[٢].

والجزاء يأتي بمعنى القضاء أيضًا ، وجزيته بما صنع جزاء وجازيته، بمعنىً، ويقال: جازيته فجزيته، أي: غلبته[٣]، وجزى الشّيء يجزي: كفى؛ ومنه جزى عنه هذا الأمر: أي: قضى.

وفي حديث صلاة الحائض: (فأمرهنّ أن يجزين)[٤] أي: يقضين.

وفي حديثٍ آخرٍ: (تجزي عنك ولا تجزي عن أحدٍ بعدك)[٥].

وتقول: إن وضعت صدقتك في آل فلانٍ جزت عنك، فهي جازيةٌ عنك.

والجوازي: جمع جازية أو جازٍ أو جزاءٍ، وبكلٍّ فسّر قول الحطيئة: من يفعل الخير لا يعدم جوازيه.

ويقال: جزتك عنّي الجوازي: أي جزتك جوازي أفعالك المحمودة[٦].

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

عرّف مصطلح الجزاء خلق كثيرون، ومما ينبغي ذكره في هذا المقام هو ما ينسجم مع طبيعة الدراسة القرآنية، ومن هذه التعريفات:

ذكر الإمامان الأصفهاني والمناوي أن الجزاء اصطلاحًا هو: «كل ما فيه الكفاية من المقابلة، إن خيرًا فخير، وإن شرًّا فشرٌّ»[٧].

---

(١) مقاييس اللغة، ابن فارس ١/ ٤٥٥- ٤٥٦.

(٢) العين، الفراهيدي ٦/ ١٦٤.

(٣) الصحاح، الجوهري ٦/ ٢٣٠٢.

(٤) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الحيض، باب وجوب قضاء الصّوم على الحائض دون الصّلاة، رقم ٣٣٥.

(٥) أخرجه البخاري في صحيحه، أبواب العيدين، باب الأكل يوم النّحر، رقم ٩٥٥.

(٦) انظر: مختار الصحاح، الرازي ص ٥٨، لسان العرب، ابن منظور ١٤/ ١٤٣- ١٤٤، المصباح المنير، الفيومي ١/ ١٠٠، القاموس المحيط، الفيروزآبادي ص ١٢٧٠، تاج العروس، الزبيدي ٣٧/ ٣٥١- ٣٥٦، المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية ١/ ١٢١- ١٢٢.

(٧) انظر: المفردات، الراغب الأصفهاني، ص ١٩٥، التوقيف، المناوي، ص ١٢٥.

وعرّفه الشيخ محمد عبد الله دراز بأنه: «رد فعل القانون على موقف الأشخاص الخاضعين لهذا القانون»[1].

وبالنظر إلى التعريفين السابقين يتضح أن التعريف الأول أكثر دقةً؛ إذ إنه جامع لكل جوانب المصطلح من جهة، وهو مانع لغيره من الألفاظ ذات الصلة، كما أن تعريف الشيخ محمد عبد الله دراز يظهر فيه التأثر من التعريف القانوني له في الدنيا، وكما هو معلوم فإن التعريف القرآني يركز على الجانبين الدنيوي والأخروي، مع تقديم الآخرة على الدنيا.

وكلا المعنيين اللغوي والاصطلاحي لا يخرجان عن أن معنى الجزاء مقابلة الخير بالخير والشر بالشر.

(١) دستور الأخلاق في القرآن ص٢٤٥.

الجزاء في الاستعمال القرآني

وردت مادة (جزي) في القرآن(١١٧) مرة[١].

والصيغ التي وردت عليها هي:

والصيغ التى وردت هى:

الصيغة	عدد المرات	المثال
الفعل الماضي	٤	﴿وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُوا۟ جَنَّةً وَحَرِيرًا ﴿١٢﴾﴾ [الإنسان: ١٢]
الفعل المضارع	٧٠	﴿نِّعْمَةً مِّنْ عِندِنَا ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى مَن شَكَرَ ﴿٣٥﴾﴾ [القمر: ٣٥]
المصدر	٤٢	﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ ﴿٦٠﴾﴾ [الرحمن: ٦٠]
اسم الفاعل	١	﴿وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيْـًٔا﴾ [لقمان: ٣٣]

وجاء الجزاء في القرآن على ثلاثة وجوه[٢]:

أحدها: ثواب الخير أو الشر: ومنه قوله تعالى: ﴿ثُمَّ يُجْزَىٰهُ ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ ﴿٤١﴾﴾ [النجم: ٤١]، يعني: يثيبه على ما سعى؛ إن خيرًا فيكافئه بالخير، وإن شرًّا فيعاقبه بالشر.

الثاني: القضاء: ومنه قوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا﴾ [البقرة: ٤٨]، يعني: لا تقضي.

الثالث: البدل والعوض: ومنه قوله تعالى: ﴿وَمَن قَتَلَهُۥ مِنكُم مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ ٱلنَّعَمِ﴾ [المائدة: ٩٥]، يعني: بدله.

(١) المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبد الباقي ص ١٦٨ - ١٧٠، المعجم المفهرس الشامل، عبد الله جلغوم، ص ٣٨٩-٣٩١.

(٢) انظر: بصائر ذوي التمييز، الفيروزآبادي ٢/ ٣٨٠.

الألفاظ ذات الصلة

١ الثواب:

الثواب لغةً:

الثواب اسم للمصدر؛ لأنّ مصدر الثلاثي ثوبًا وثوبانًا، ومصدر الرباعي إثابة، وفعل الثواب ثلاثي أجوف معتل العين، ولفظ الثواب في اللغة جاء على عدة معانٍ، أبرزها: العود والرجوع، والاجتماع، والجزاء[١].

الثّواب اصطلاحًا:

الجزاء كيف ما كان من الخير والشّر، إلّا أن استعماله في الخير أكثر[٢].

الصلة بين الثواب والجزاء:

الجزاء أعم وأشمل من الثواب؛ حيث إن الجزاء على المكافأة مقابل عمل الخير أو الشر، كلٌّ حسب عمله، أما الثواب فهو مكافأة مقابل الطاعة والعبادة فقط.

٢ العقاب:

العقاب لغة:

العقاب مأخوذ من (عقب): العين والقاف والباء أصلان صحيحان: أحدهما يدل على تأخير شيء وإتيانه بعد غيره. والأصل الآخر يدل على ارتفاع وشدة وصعوبة[٣].

العقاب اصطلاحًا:

العقاب: هو جزاء الشّرّ، والنكال أخص منه[٤]، أو هو ما يلحق الإنسان بعد الذّنب من المحنة في الدنيا أو في الآخرة أو فيهما معًا[٥].

الصلة بين العقاب والجزاء:

من خلال التعريفين اللغوي والاصطلاحي للعقاب تبيّن أن الجزاء أعم وأشمل منه؛ إذ إن العقاب يعني إصلاح الخطأ بمحاسبة، والجزاء يضاف إليه مكافأة عمل الخير بالثواب.

(١) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ١/ ٣٩٣، النهاية في غريب الحديث، ابن الأثير ١/ ٢٢٧، مختار الصحاح، الرازي ص٩٠، لسان العرب، ابن منظور ١/ ٢٤٣. القاموس المحيط، الفيروزآبادي ١/ ٦٤، المصباح المنير، الفيومي ١/ ٨٧ تاج العروس، الزبيدي ٢/ ١٠٣.

(٢) الكليات، الكفوي ص٣٢٨.

(٣) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ٤/ ٧٧.

(٤) الكليات، الكفوي ص٦٥٤.

(٥) كشاف اصطلاحات الفنون، التهانوي ٢/ ١١٩٢.

٣ الحساب:

الحساب لغةً:

مأخوذ من قولهم: حسبك كذا، أي: كفاك، فسمي الحساب في المعاملات حسابًا لأنه يعلم به ما فيه كفاية وليس فيه زيادة على المقدار ولا نقصان، والحسبان: الظن[١].

الحساب اصطلاحًا:

هو المؤاخذة والمجازاة، والحساب: ما يحاسب عليه فيجازى بحسبه، ولا يخرج المعنى اللغوي عن المعنى الاصطلاحي له[٢].

الصلة بين الحساب والجزاء:

من خلال التعريفين اللغوي والاصطلاحي للحساب تبيّن أن الجزاء أعمّ وأشمل منه؛ إذ إنّ الحساب يعني إيقاع العذاب على الخاطئ مع كفاية المحاسب في القدرة على حماية المظلوم.

(١) انظر: معاني القرآن وإعرابه، الزجاج ٢ / ٨٧، الصحاح، الجوهري ١ / ١١٠، تاج العروس، الزبيدي ٢ / ٢٦٨، المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية ١ / ١٧١.

(٢) انظر: المفردات، الراغب الأصفهاني ص ٢٣٢، بصائر ذوي التمييز، الفيروز آبادي ٢ / ٤٦٠، التوقيف، المناوي ص ١٣٩، التحرير والتنوير، ابن عاشور ٣ / ١٣٠، الموسوعة القرآنية، إبراهيم الأبياري ٨ / ١٣١.

أنواع الجزاء

تحدث القرآن الكريم عن أنواع الجزاء وهذا ما سنبينه فيما يأتي:

أولًا: الجزاء الحسن وأهله في الدنيا:

تعددت صور الجزاء الحسن وأهله في الدنيا، ومن هذه الصور:

١. جزاء الشاكرين.

والشّكر مطلقًا: الثّناء على المحسن بذكر إحسانه، فالعبد يشكر الله، أي: يثنى عليه بذكر إحسانه الّذي هو النّعمة.

والله تعالى يشكر العبد، أي: يثني عليه بقبول إحسانه الّذي هو الطّاعة.

وهذا المفهوم ينقسم إلى:

الشّكر اللّغويّ: وهو الوصف بالجميل على جهة التّعظيم والتبجيل باللّسان والجنان والأركان.

وإلى الشّكر العرفيّ: وهو صرف العبد جميع ما أنعم الله به عليه من السّمع والبصر والكلام وغيرها إلى ما خلق له وأعطاه لأجله، كصرف النّظر إلى مصنوعاته، والسمع إلى تلقي إنذاراته، والذهن إلى فهم معانيها[١].

وللإنسان حالان لا يخرج عنهما، ولا ثالث لها ﴿إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ [الإنسان: ٣].

وجاء وصف اثنين من أولي العزم بهذا الشرف العظيم، وهما:

١. نوح عليه السلام ، قال عز وجل عنه: ﴿إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا﴾ [الإسراء: ٣].

٢. إبراهيم عليه السلام إذ قال تعالى عنه: ﴿شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [النحل: ١٢١].

ومن فضل الله على المؤمنين أنه لا يقدّر عليهم خيرًا ولا مصيبة إلا كان خيرًا لهم.

إن أصابتهم سراء فشكروا؛ جازاهم جزاء الشاكرين، وإن أصابتهم ضراء فصبروا؛ جازاهم جزاء الصابرين[٢].

قال تعالى: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ [إبراهيم: ٧].

أي: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ﴾ نعمتي عليكم لأزيدنّكم منها ﴿وَلَئِن كَفَرْتُمْ﴾ أي: كفرتم النّعم وسترتموها وجحدتموها ﴿إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ وذلك بسلبها عنهم، وعقابه إيّاهم على كفرها[٣].

وقال تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالنُّذُرِ ﴿٣٣﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّا آلَ لُوطٍ نَّجَّيْنَاهُم بِسَحَرٍ ﴿٣٤﴾ نِّعْمَةً مِّنْ عِندِنَا كَذَٰلِكَ نَجْزِي مَن شَكَرَ﴾ [القمر:

(١) الكليات، الكفوي ص٥٣٤.

(٢) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص١٥٢.

(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ٤٧٩.

٣٣-٣٥].

وقال تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كِتَابًا مُّؤَجَّلًا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ الْآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٤-١٤٥].

قال محمد بن إسحاق: «أي: فمن كان منكم يريد الدنيا ليس له رغبة في الآخرة نؤته منها ما قسم له فيها من رزق، ولا حظ له في الآخرة ﴿وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ الْآخِرَةِ﴾ منكم ﴿نُؤْتِهِ مِنْهَا﴾ ما وعده، مع ما يجري عليه من رزقه في دنياه، وذلك جزاء الشاكرين أي: المتقين»[(١)].

٢. جزاء المتقين.

التّقوى: هو على ما قاله عليّ رضي الله عنه: «ترك الإصرار على المعصية، وترك الاغترار بالطّاعة، وهي الّتي يحصل بها الوقاية من النّار، والفوز بدار القرار»[(٢)].

وغاية التقوى البراءة من كل شيء سوى الله، ومبدؤه اتقاء الشّرك، وأوسطه اتقاء الحرام، والتّقوى منتهى الطّاعات، والرهبة من مبادئ التّقوى، وقد تسمى التّقوى خوفًا وخشية، ويسمى الخوف تقوى[(٣)].

لذلك جاء جزاؤهم مفخمًا بكل أنواع التعظيم والإكرام، ومن هذه الجزاءات:

قوله تعالى: ﴿جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ كَذَٰلِكَ يَجْزِي اللَّهُ الْمُتَّقِينَ﴾ [النحل: ٣١].

وقوله تعالى: ﴿قُلْ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ كَانَتْ لَهُمْ جَزَاءً وَمَصِيرًا ﴿١٥﴾ لَّهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ خَالِدِينَ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعْدًا مَّسْئُولًا﴾ [الفرقان: ١٥-١٦].

أي: قل لهم -مبينًا لسفاهة رأيهم واختيارهم الضار على النافع-: ﴿أَذَٰلِكَ﴾ الذي وصفت لكم من العذاب ﴿خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ﴾ التي زادها تقوى الله، فمن قام بالتقوى فالله قد وعده إياها ﴿كَانَتْ لَهُمْ جَزَاءً﴾ على تقواهم ﴿وَمَصِيرًا﴾ موئلًا يرجعون إليها، ويستقرون فيها، ويخلدون دائمًا أبدًا.

﴿لَّهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ﴾ أي: يطلبون وتتعلق بهم أمانيهم ومشيئتهم، من المطاعم والمشارب اللذيذة، والملابس الفاخرة والنساء الجميلات، والقصور العاليات، والجنات والحدائق المرجحنة[(٤)]، والفواكه

(١) أخرجه الطبري في تفسيره ٦/ ١٠٩.
(٢) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ٢/ ٢٦٨ غرائب القرآن، النيسابوري ١/ ١٣٨.
(٣) الكليات، الكفوي ص٢٩٩.
(٤) رجحن: ارجحن الشيء: مال، ونخل مراجيح ومواقير: ثقال الأحمال ومن المجاز: هذه

التي تسر ناظريها وآكليها، من حسنها وتنوعها وكثرة أصنافها، والأنهار التي تجري في رياض الجنة وبساتينها، حيث شاءوا يصرفونها ويفجرونها أنهارًا من ماء غير آسن، وأنهارًا من لبن لم يتغير طعمه، وأنهارًا من خمر لذة للشاربين، وأنهارًا من عسل مصفى، وروائح طيبة، ومساكن مزخرفة، وأصوات شجية تأخذ من حسنها بالقلوب، ومزاورة الإخوان، والتمتع بلقاء الأحباب، وأعلى من ذلك كله التمتع بالنظر إلى وجه الرب الرحيم وسماع كلامه، والحظوة بقربه، والسعادة برضاه، والأمن من سخطه، واستمرار هذا النعيم ودوامه وزيادته على ممر الأوقات، وتعاقب الآنات، ﴿كَانَ﴾ دخولها والوصول إليها ﴿عَلَىٰ رَبِّكَ وَعْدًا مَّسْـُٔولًا﴾ يسأله إياها، عباده المتقون بلسان حالهم، ولسان مقالهم، فأي الدارين المذكورتين خير وأولى بالإيثار؟ وأي العاملين، عمال دار الشقاء أو عمال دار السعادة؛ أولى بالفضل والعقل والفخر يا أولي الألباب؟[1].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ۝٣١ حَدَآئِقَ وَأَعْنَٰبًا ۝٣٢ وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا ۝٣٣ وَكَأْسًا دِهَاقًا ۝٣٤ لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَّٰبًا ۝٣٥ جَزَآءً مِّن رَّبِّكَ عَطَآءً حِسَابًا﴾ [النبأ: ٣١-٣٦].

قال ابن كثير: «يقول تعالى مخبرًا عن السّعداء وما أعدّ لهم تعالى من الكرامة والنّعيم المقيم، فقال: ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا﴾. قال ابن عبّاسٍ والضّحّاك: متنزّهًا.

وقال مجاهدٌ، وقتادة: فازوا، فنجوا من النّار.

والأظهر ها هنا قول ابن عبّاسٍ؛ لأنّه قال بعده: ﴿حَدَآئِقَ﴾ وهي البساتين من النّخيل وغيرها ﴿وَأَعْنَٰبًا ۝٣٢ وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا﴾ أي: وحورًا كواعب.

قال ابن عبّاسٍ ومجاهدٌ وغير واحدٍ: ﴿وَكَوَاعِبَ﴾ أي: نواهد، يعنون أن ثديّهن نواهد لم يتدلّين؛ لأنّهنّ أبكارٌ عرب أترابٌ، أي: في سنٍّ واحدةٍ»[2].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى ظِلَٰلٍ وَعُيُونٍ ۝٤١ وَفَوَٰكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ ۝٤٢ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۝٤٣ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [المرسلات: ٤١-٤٤].

قال ابن كثير: «يقول تعالى مخبرًا عن عباده المتّقين الّذين عبدوه بأداء الواجبات، وترك المحرّمات إنّهم يوم القيامة يكونون في جنّاتٍ وعيونٍ، أي: بخلاف ما أولئك الأشقياء فيه من ظلّ اليحموم، وهو الدّخان

رحى مرجحنّة للسحابة المستديرة الثقيلة، ويقال: فلان في دنيا مرجحنّة أي: واسعة كثيرة.
انظر: الصحاح، الجوهري ٥/ ٢١٢١، تهذيب اللغة، الأزهري ٥/ ٢٠٢.

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٥٧٩.

(٢) تفسير القرآن العظيم ٨/ ٣٠٨.

الأسود المنتن.

﴿وَفَوَٰكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ﴾ أي: من سائر أنواع الثّمار مهما طلبوا وجدوا، ﴿كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي: يقال لهم ذلك على سبيل الإحسان إليهم، ثمّ قال تعالى مخبرًا خبرًا مستأنفًا: ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ أي: هذا جزاؤنا لمن أحسن العمل»[1].

٣. جزاء المحسنين.

الإحسان: هو فعل ما ينفع غيره بحيث يصير الغير حسنًا به، كإطعام الجائع، أو يصير الفاعل به حسنًا بنفسه[2].

والإحسان مطلوبٌ في كلّ شيءٍ بهدي دين الفطرة، الدّاعي لحسنتي الدّنيا والآخرة، وجزاء الإحسان في كلّ شيءٍ بحسبه، قال عز وجل: ﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ﴾ [الرحمن: ٦٠].

كما أنّ الإساءة محرّمةٌ في كلّ شيءٍ وجزاؤها من جنسها، قال عز وجل: ﴿لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ بِٱلْحُسْنَىٰ﴾ [النجم: ٣١][3].

وقوله تعالى: ﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ﴾ [الرحمن: ٦٠].

أي: هل جزاء من أحسن في عبادة الخالق ونفع عبيده إلا أن يحسن إليه بالثواب الجزيل، والفوز الكبير، والنعيم المقيم، والعيش السليم[4].

وقوله تعالى: ﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [الزمر: ٣٤].

هو تعبير جامع يشمل كل ما يخطر للنفس المؤمنة من رغائب، ويقرر أن هذا ﴿لَهُم﴾ عند ربهم، فهو حقهم الذي لا يخيب ولا يضيع[5].

وخص المولى الأنبياء بكثير من النعم بسبب إحسانهم.

فقال تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ كُلًّا هَدَيْنَا ۚ وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [الأنعام: ٨٤].

قال محمد رشيد رضا: «قال تعالى بعد ذكر هؤلاء: ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ أي: بالجمع بين نعم الدّنيا ورياستها بالحقّ، وهداية الدّين وإرشاد الخلق، وهذا كما قال الله تعالى في أحدهم -يوسف-: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف: ٢٢].

فهو جزاءٌ خاصٌّ بعضه معجّلٌ في الدّنيا، أي: ومثل هذا الجزاء في جنسه يجزي الله بعض المحسنين بحسب إحسانه في الدّنيا

(١) المصدر السابق ٨/ ٣٠١.
(٢) الكليات، الكفوي ص٥٣، ٦٦٧.
(٣) المنار، محمد رشيد رضا ٨/ ٤١١.
(٤) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٨٣١.
(٥) في ظلال القرآن، سيد قطب ٥/ ٣٠٥١.

قبل الآخرة، ومنهم من يرجئ جزاءه إلى الآخرة»[1].

وقال تعالى عن يوسف عليه السلام: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف: ٢٢].

قال ابن كثير: «قوله: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ﴾ أي: يوسف عليه السلام ﴿أَشُدَّهُۥٓ﴾ أي: استكمل عقله، وتمّ خلقه ﴿ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ يعني: النّبوّة، إنّه حباه بها بين أولئك الأقوام ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ أي: إنّه كان محسنًا في عمله، عاملًا بطاعة ربّه تعالى»[2].

وقال تعالى مثل ذلك عن موسى عليه السلام: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [القصص: ١٤].

وقال تعالى عن موسى وهارون عليهما السلام: ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١٢٠﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [الصافات: ١٢٠-١٢١].

قال ابن كثير: «يذكر تعالى ما أنعم به على موسى وهارون من النّبوّة والنّجاة بمن آمن معهما من قهر فرعون وقومه، وما كان يعتمده في حقّهم من الإساءة العظيمة من قتل الأبناء واستحياء النّساء، واستعمالهم في أخسّ الأشياء، ثمّ بعد هذا كلّه نصرهم عليهم، وأقرّ أعينهم منهم، فغلبوهم وأخذوا أرضهم وأموالهم وما كانوا جمّعوه طول حياتهم، ثمّ أنزل اللّه على موسى الكتاب العظيم الواضح الجليّ المستبين وهو التّوراة»[3].

وقال تعالى عن نوح عليه السلام: ﴿وَلَقَدْ نَادَىٰنَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ ٱلْمُجِيبُونَ ﴿٧٥﴾ وَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾ وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلْبَاقِينَ ﴿٧٧﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿٧٨﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٩﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [الصافات: ٧٥-٨٠].

وقال تعالى عن إبراهيم عليه السلام: ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿١٠٩﴾ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [الصافات: ١٠٩-١١٠].

﴿فَلَمَّآ أَسْلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ وَنَٰدَيْنَٰهُ أَن يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ ۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [الصافات: ١٠٣-١٠٥].

قال ابن كثير: «قوله: ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ أي: هكذا نصرف عمّن أطاعنا المكاره والشّدائد، ونجعل لهم من أمرهم فرجًا ومخرجًا، كقوله تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ﴿٢﴾ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ۚ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ ۚ قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا﴾ [الطلاق:

(١) المنار ٧/ ٤٨٩.
(٢) تفسير القرآن العظيم ٤/ ٣٧٨.
(٣) تفسير القرآن العظيم ٧/ ٣٦.

٢-٣]»[1].

وأثنى الله على إلياس كما أثنى على إخوانه صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين ، فقال: ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِلْ يَاسِينَ ﴿١٣٠﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [الصافات: ١٣٠-١٣١][2].

وقال تعالى عن جزاء كلّ من أحسن العمل: ﴿كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [المرسلات: ٤٣-٤٤][3].

وقوله تعالى: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ ۚ وَلَدَارُ ٱلْـَٔاخِرَةِ خَيْرٌ ۚ وَلَنِعْمَ دَارُ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [النحل: ٣٠].

كقوله تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٧].

أي: من أحسن عمله في الدّنيا أحسن اللّه إليه في الدّنيا والآخرة.

ثمّ أخبر بأنّ دار الآخرة خيرٌ، أي: من الحياة الدّنيا، والجزاء فيها أتمّ من الجزاء في الدّنيا، كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ﴾ [القصص: ٨٠].

وقال تعالى: ﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّلْأَبْرَارِ﴾ [آل عمران: ١٩٨].

وقال تعالى: ﴿وَٱلْـَٔاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ﴾ [الأعلى: ١٧].

وقال لرسوله صلى الله عليه وسلم: ﴿وَلَلْـَٔاخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ ٱلْأُولَىٰ﴾ [الضحى: ٤].

ثمّ وصفوا الدّار الآخرة فقالوا: ﴿وَلَنِعْمَ دَارُ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [النحل: ٣٠][4].

وقال السعدي: «﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟﴾ في عبادة الله تعالى ، وأحسنوا إلى عباد الله فلهم ﴿فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ﴾ رزق واسع، وعيشه هنية، وطمأنينة قلب، وأمن وسرور ﴿وَلَدَارُ ٱلْـَٔاخِرَةِ خَيْرٌ﴾ من هذه الدار وما فيها من أنواع اللذات والمشتهيات، فإن هذه نعيمها قليل محشو بالآفات منقطع، بخلاف نعيم الآخرة؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَنِعْمَ دَارُ ٱلْمُتَّقِينَ﴾[5].

قال الشعراوي: «نفهم من هذه الآية أنه على المؤمن ألاّ يترك الدنيا وأسبابها، فربما أخذها منك الكافر، وتغلّب عليك بها، أو يفتنك في دينك بسببها، فمن يعبد الله أولى بسرّه في الوجود، وأسرار الله في الوجود هي للمؤمنين، ولا ينبغي لهم أن يتركوا الأخذ بأسباب الدنيا للكافرين.

اجتهد أنت أيها المؤمن في أسباب الدنيا حتى تأمن الفتنة من الكافرين في دنياك، ولا يخفي ما نحن فيه الآن من حاجتنا لغيرنا، مما أعطاهم الفرصة ليسيطروا على سياساتنا

(١) المصدر السابق ٧/ ٣٠.
(٢) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٧٠٧.
(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٨/ ٣٠١.
(٤) المصدر السابق ٤/ ٥٦٨.
(٥) تيسير الكريم الرحمن ص٤٣٩.

ومقدراتنا.

لذلك يقول سبحانه: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ﴾[النحل: ٣٠].

أي: يأخذون حسناتهم، وتكون لهم اليد العليا بما اجتهدوا، وبما عملوا في دنياهم، وبذلك ينفع الإنسان نفسه وينفع غيره، وكلما اتسعت دائرة النفع منك للناس كانت يدك هي العليا، وكان ثوابك وخيرك موصولًا بخير الآخرة؛ لذلك يقول النبي صلى الله عليه وسلم: **(ما من مسلم يغرس غرسًا، أو يزرع زرعًا، فيأكل منه طير أو إنسان أو بهيمة إلا كان له به صدقة)**[(١)]. ومن هذه الآية أيضًا يتضح لنا جانب آخر هو ثمرة من ثمرات الإحسان في الدنيا وهي الأمن»[(٢)].

وقال تعالى: ﴿قُلْ يَا عِبَادِ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ﴾ [الزمر: ١٠].

قال ابن كثير: «يقول تعالى آمرًا عباده المؤمنين بالاستمرار على طاعته وتقواه ﴿قُلْ يَا عِبَادِ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ﴾ أي: لمن أحسن العمل في هذه الدّنيا حسنةٌ في دنياهم وأخراهم»[(٣)].

٤. جزاء المتصدقين.

الصّدقة: هي الإحسان إلى النّاس المحاويج الضّعفاء، الّذين لا كسب لهم ولا كاسب، يعطون من فضول الأموال طاعةً للّه، وإحسانًا إلى خلقه، وقد ثبت في الصّحيحين: **(سبعةٌ يظلّهم اللّه في ظلّه يوم لا ظلّ إلّا ظلّه -فذكر منهم-: ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتّى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه)**[(٤)].

وفي الصّحيحين عن أبي هريرة قال: **(ضرب رسول اللّه صلى الله عليه وسلم مثل البخيل والمتصدّق كمثل رجلين عليهما جبّتان من حديدٍ أو جنّتان من حديدٍ، قد اضطرّت أيديهما إلى ثديّهما وتراقيهما، فجعل المتصدّق كلّما تصدّق بصدقةٍ انبسطت عنه، حتّى تغشى أنامله، وتعفو أثره، وجعل البخيل كلّما همّ بصدقةٍ قلصت، وأخذت كلّ حلقةٍ مكانها)**، قال أبو هريرة: **(فأنا رأيت رسول اللّه صلى الله عليه وسلم يقول بإصبعه هكذا في جيبه، فلو رأيته**

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المزارعة، باب فضل الزّرع والغرس إذا أكل منه، رقم ٢٣٢٠، ومسلم في صحيحه، كتاب المساقاة، باب فضل الغرس والزّرع، رقم ١٥٥٣.

(٢) تفسير الشعراوي ١٣/ ٧٨٨٦.

(٣) تفسير القرآن العظيم ٧/ ٨٩.

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأذان، باب من جلس في المسجد ينتظر الصّلاة وفضل المساجد، رقم ٦٦٠، ومسلم في صحيحه، كتاب الزّكاة، باب فضل إخفاء الصّدقة، رقم ١٠٣١.

يوسّعها ولا يتّسع)[1].

وقد قال تعالى: ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [التغابن: ١٦].

فجود الرّجل يحبّبه إلى أضداده، وبخله يبغّضه إلى أولاده، كما قيل[2]:

ويظهر عيب المرء في النّاس بخله
وتستره عنهم جميعًا سخاؤه
تغطّ بأثواب السّخاء فإنّني
أرى كلّ عيبٍ والسّخاء غطاؤه[3]

ومدح الله تعالى المنفقين في سبيله، وابتغاء مرضاته في جميع الأوقات، من ليلٍ أو نهارٍ، والأحوال، من سرٍّ وجهارٍ، فقال: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ٢٧٤].

والنّفقة على الأهل تدخل في ذلك أيضًا، كما ثبت في الصّحيحين أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لسعد بن أبي وقّاصٍ حين عاده مريضًا عام الفتح، وفي روايةٍ عام حجّة الوداع: (وإنّك لن تنفق نفقةً تبتغي بها وجه الله إلّا ازددت بها درجةً ورفعةً، حتّى ما تجعل في في امرأتك)[4].

وقوله تعالى: ﴿فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ أي: ثوابهم عند الله؛ وسمي أجرًا لأنه يشبه عقد الإجارة التي يعوّض فيه العامل على عمله؛ وهذا الأجر قد بين فيما سبق من السورة بأن الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّا۟ئَةُ حَبَّةٍ ۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٦١].

وقوله تعالى: ﴿وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ أي: فيما يستقبل ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ أي: فيما مضى؛ فهم لا يحزنون على ما سبق؛ ولا يخافون من المستقبل؛ لأنهم يرجون ثواب الله عز وجل ؛ ولا يحزنون على ما مضى لأنهم أنفقوه عن طيب نفس.

ومن الفوائد في هذه الآية:

١. الثناء على الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله سواء كان ليلًا، أو نهارًا، أو سرًّا، أو جهارًا.

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب اللباس، باب جيب القميص من عند الصدر وغيره، ٧/ ١٤٣، رقم ٥٧٩٧، ومسلم في صحيحه، كتاب الزكاة، باب مثل المنفق والبخيل، ٢/ ٧٠٨، رقم ١٠٢١.

(٢) البيتان لصالح بن عبد القدوس.
انظر: روضة العقلاء، أبو حاتم البستي ص ٢٢٧، أدب الدنيا والدين، الماوردي ص ١٨٤، ولم نجدهما في ديوانه.

(٣) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦/ ٤١٩.

(٤) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١/ ٧٠٧.
والحديث أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الإيمان، بابٌ ما جاء إنّ الأعمال بالنّيّة والحسبة، رقم ٥٦، ومسلم في صحيحه، كتاب الوصيّة، باب الوصيّة بالثّلث، رقم ١٦٢٨.

٢. كثرة ثوابهم؛ لأنه سبحانه وتعالى أضاف أجرهم إلى نفسه، فقال تعالى: ﴿فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ والثواب عند العظيم يكون عظيمًا.

٣. أن الإنفاق يكون سببًا لشرح الصدر، وطرد الهم والغم؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ وهذا أمر مجرب مشاهد؛ أن الإنسان إذا أنفق يبتغي وجه الله انشرح صدره، وسرت نفسه، واطمأن قلبه؛ وقد ذكر ابن القيم رحمه الله في «زاد المعاد» أن ذلك من أسباب انشراح الصدر(١).

٤. كرم الله عز وجل حيث جعل هذا الثواب الذي سببه منه وإليه أجرًا لفاعله؛ كالأجير إذا استأجرته فإن أجره ثابت لازم.

٥. كمال الأمن لمن أنفق في سبيل الله؛ وذلك لانتفاء الخوف والحزن عنهم(٢).

قال تعالى: ﴿إِنَّ الْإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾ إِلَّا الْمُصَلِّينَ ﴿٢٢﴾ الَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ ﴿٢٣﴾ وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ﴾ [المعارج: ١٩-٢٤].

فمن أسباب النجاة من صفات الذم العمل بما في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ﴾ أي: في أموالهم نصيبٌ مقرّرٌ لذوي الحاجات. فالصّلاة والزّكاة والصدقة علاجٌ لما في جبلّة الإنسان من الهلع والجبن الحاجم له عن الإقدام في الدّفاع عن الحقّ وإعلاء كلمة الله، ومن الشّحّ الصّادّ له عن الإنفاق في سبيل الله؛ ولذلك كان المنافقون أجبن النّاس وأبخلهم(٣).

ثانيًا: الجزاء السيئ وأهله في الدنيا:

تعددت صور الجزاء السيئ وأهله في الدنيا، ومن هذه الصور:

١. جزاء المجرمين.

أخبر تعالى أنه أهلك الأمم الماضية بظلمهم وكفرهم، بعد ما جاءتهم البينات على أيدي الرسل، وتبين الحق فلم ينقادوا لها ولم يؤمنوا، فأحل بهم عقابه الذي لا يرد عن كل مجرم متجرئ على محارم الله، وهذه سنته في جميع الأمم(٤).

قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ وَكَذَٰلِكَ

(١) حيث قال: «فإن للصدقة وفعل المعروف تأثيرًا عجيبًا في شرح الصدر».
انظر: زاد المعاد ٢/ ٢٢.

(٢) تفسير القرآن الكريم، الفاتحة والبقرة، ابن عثيمين، ٣/ ٣٧٢- ٣٧٣.

(٣) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٨/ ٢٢٦، ٢٢٧ المنار، محمد رشيد رضا ١٠/ ٤٦٨
تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٨٨٧.

(٤) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٣٥٩.

﴿نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ﴾ [الأعراف: ٤٠].

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ﴾ [يونس: ١٣].

قال سيد قطب رحمه الله: «لقد انتهى بهم الإسراف وتجاوز الحد والظلم -وهو الشرك- إلى الهلاك، وهذه مصارعهم كانوا يرون بقيتها في الجزيرة العربية، في مساكن عاد وثمود وقرى قوم لوط، وتلك القرون جاءتهم رسلهم بالبينات كما جاءكم رسولكم: ﴿وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا﴾ لأنهم لم يسلكوا طريق الإيمان، وسلكوا طريق الطغيان فأبعدوا فيها، فلم يعودوا مهيئين للإيمان، فلقوا جزاء المجرمين ﴿كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ﴾ وإذ يعرض عليهم نهاية المجرمين الذين جاءتهم رسلهم بالبينات فلم يؤمنوا، فحق عليهم العذاب، يذكرهم أنهم مستخلفون في مكان هؤلاء الغابرين، وأنهم مبتلون بهذا الاستخلاف ممتحنون فيما استخلفوا فيه: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ مِن بَعْدِهِمْ لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ [يونس: ١٤]»[(١)].

وقال تعالى: ﴿تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَىٰ إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ﴾ [الأحقاف: ٢٥].

﴿تُدَمِّرُ﴾ أي: تخرّب ﴿كُلَّ شَيْءٍ﴾ من بلادهم ممّا من شأنه الخراب ﴿بِأَمْرِ رَبِّهَا﴾ أي: بإذن اللّه لها في ذلك، كقوله: ﴿مَا تَذَرُ مِن شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ﴾ [الذاريات: ٤٢].

أي: كالشّيء البالي؛ ولهذا قال: ﴿فَأَصْبَحُوا لَا يُرَىٰ إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ﴾ أي: قد بادوا كلّهم عن آخرهم ولم تبق لهم باقيةٌ ﴿كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ﴾ أي: هذا حكمنا فيمن كذّب رسلنا، وخالف أمرنا[(٢)].

٢. جزاء الظالمين.

جزاء الظالمين تربية عاجلة للوقوف أمام سعارات الظلم من الظالمين؛ لأن الحق لو تركها للآخرة لاستشرى الظلم، والذي لا يؤمن بالآخرة يصبح محترفًا للظلم[(٣)].

قال تعالى: ﴿إِنِّي أُرِيدُ أَن تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ﴾ [المائدة: ٢٩].

أي: إنّي أريد بما ذكرت من اتّقاء مقابلة الجناية بمثلها أن ترجع أنت إن فعلتها متلبّسًا ﴿بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ﴾ أي: إثم قتلك إيّاي، وإثمك الخاصّ بك، الّذي كان من شؤمه عدم قبول قربانك، وهذا التّفسير مأثورٌ عن ابن عبّاسٍ رضي الله عنه، وفي وجهٍ آخر وهو أنّه مبنيٌّ على كون القاتل يحمل في الآخرة إثم من

(١) في ظلال القرآن ٣/ ١٧٦٩.

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٧/ ٢٨٦.

(٣) تفسير الشعراوي ٥/ ٣٠٧٦.

قتله إن كان له آثامٌ؛ لأنّ الذّنوب والآثام الّتي فيها حقوقٌ للعباد، لا يغفر الله تعالى منها شيئًا حتّى يأخذ لكلّ ذي حقٍّ حقّه، وإنّما القصاص في الآخرة بالحسنات والسّيّئات، فيعطى المظلوم من حسنات الظّالم ما يساوي حقّه إن كان له حسناتٌ توازي ذلك، أو يحمل الظّالم من آثام المظلوم وأوزاره ما يوازي ذلك إن كان له آثامٌ أو أوزارٌ، وما نقص من هذا أو ذاك يستعاض عنه بما يوازيه من الجزاء في الجنّة أو النّار، وفي ذكر المتكلّم إثمه وإثم أخيه تواضعٌ وهضمٌ لنفسه بإضافة الإثم إليها على الوجه الثّاني، وتذكيرٌ للمخاطب بأنّه ليس له حسناتٌ توازي هذا الظّلم الّذي عزم عليه.

ولذلك رتّب عليه قوله: ﴿فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ ۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي: تكون بما حملت من الإثمين من أهل النّار في الآخرة؛ لأنّك تكون ظالمًا، والنّار جزاء كلّ ظالمٍ، فتكون من أهلها حتمًا، ترقّى في صرفه عن عزمه من التّبرّؤ إليه من سبب حرمانه من قبول قربانه ببيان سبب التّقبّل عند الله تعالى وهو التّقوى، إلى تنزيه نفسه من جزائه على جنايته بمثلها، إلى تذكيره بما يجب من خوف الله تعالى ربّ العالمين الّذي لا يرضيه ممّن وهبهم العقل والاختيار إلّا أن يتحرّوا إقامة سننه في تربية العالم وإبلاغ كلّ حيٍّ يقبل الكمال إلى كماله، إلى تذكيره بأنّ المعتدي يحمل إثم نفسه، وإثم من اعتدى عليه بعدل الله تعالى في القصاص والجزاء إلى تذكيره بعذاب النّار وكونها مثوًى للظّالمين الفجّار[1].

وقال تعالى: ﴿فَكَانَ عَٰقِبَتَهُمَآ أَنَّهُمَا فِى ٱلنَّارِ خَٰلِدَيْنِ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الحشر: ١٧].

قال ابن كثير: «قوله: ﴿فَكَانَ عَٰقِبَتَهُمَآ أَنَّهُمَا فِى ٱلنَّارِ خَٰلِدَيْنِ فِيهَا﴾ أي: فكانت عاقبة الآمر بالكفر والفاعل له، وتصيّرهما إلى نار جهنّم خالدين فيها ﴿وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي: جزاء كلّ ظالمٍ»[2].

وقال السعدي: «﴿فَكَانَ عَٰقِبَتَهُمَآ﴾ أي: الداعي الذي هو الشيطان، والمدعو الذي هو الإنسان حين أطاعه ﴿أَنَّهُمَا فِى ٱلنَّارِ خَٰلِدَيْنِ فِيهَا﴾ كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَدْعُوا۟ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُوا۟ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [فاطر: ٦].

﴿وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ الذين اشتركوا في الظلم والكفر، وإن اختلفوا في شدة العذاب وقوته، وهذا دأب الشيطان مع كل أوليائه، فإنه يدعوهم ويدليهم إلى ما يضرهم بغرور، حتى إذا وقعوا في الشباك، وحاقت بهم أسباب الهلاك، تبرأ منهم وتخلى عنهم، واللوم كل اللوم على من أطاعه، فإن الله قد حذر منه وأنذر، وأخبر

(١) المنار، محمد رشيد رضا ٦/ ٢٨٤.
(٢) تفسير القرآن العظيم ٨/ ٧٦.

بمقاصده وغايته ونهايته، فالمقدم على طاعته عاصٍ على بصيرة لا عذر له»[1].

وقال تعالى: ﴿قَالُوا جَزَاؤُهُ مَن وُجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ كَذَٰلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾ [يوسف: ٧٥]، أي: هذه هي شريعتنا نحكمها في السارق، والسارق من الظالمين[2].

٣. جزاء المفترين.

كل مفترٍ على الله، كاذب على شرعه، متقول عليه ما لم يقل، فإن له نصيبًا من الغضب من الله، والذل في الحياة الدنيا[3].

وتكرر في القرآن الكريم أنه لا أظلم ممن يفتري الكذب على الله عز وجل، نحو قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ ۚ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ [الأنعام: ٢١].

وقوله تعالى: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ ۚ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْمُجْرِمُونَ﴾ [يونس: ١٧].

وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَىٰ إِلَى الْإِسْلَامِ ۚ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [الصف: ٧].

وهذه الآيات وغيرها مما هي في معناها، وهو: أي ظلم أشنع من الافتراء على الله والتكذيب بآياته؟![4].

والجواب: لا أظلم في أبواب الافتراء ومعانيها ممن افترى على الله الكذب.

وقال تعالى: ﴿وَقَالُوا هَٰذِهِ أَنْعَامٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لَا يَطْعَمُهَا إِلَّا مَن نَّشَاءُ بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعَامٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَامٌ لَّا يَذْكُرُونَ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا افْتِرَاءً عَلَيْهِ ۚ سَيَجْزِيهِم بِمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ [الأنعام: ١٣٨].

هذا لون من الافتراءات قد فعلوه ونسبوه إلى أنه متلقّى من الله، ومأمور به منه سبحانه، ولو قالوا: إن هذه الأمور من عندهم لكان وقع الافتراء أقل حدة، لكنه افتراء شديد؛ لأنهم جاءوا بهذه الأشياء ونسبوها إلى الله، وهم قد انحلوا عن الدين وقالوا على بعض من سلوكهم إنه من الدين؛ ولذلك يجازيهم الله بما افتروا الجزاء الشّديد الأليم بسبب هذا الافتراء القبيح من إحلال الشرك، وتحريم الحلال من الأكل والمنافع[5].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ﴾ [الأعراف: ١٥٢].

قال ابن كثير: «قوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ﴾ نائلةٌ لكلِّ من افترى بدعةً، فإنّ ذلّ البدعة ومخالفة الرّسالة متّصلةٌ من قلبه على كتفيه، كما قال الحسن البصريّ: إنّ ذلّ البدعة على أكتافهم، وإن هملجت بهم البغلات، وطقطقت بهم البراذين.

(١) تيسير الكريم الرحمن، ص٨٥٣.
(٢) في ظلال القرآن، سيد قطب ٤/ ٢٠١٩.
(٣) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٣٠٤.
(٤) معاني القرآن، النحاس ٣/ ٣٠.
(٥) انظر: المنار، محمد رشيد رضا ٨/ ١١٢، تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٢٧٥، تفسير الشعراوي ٧/ ٣٩٦٢.

وهكذا روى أيّوب السّختياني عن أبي قلابة الجرمي أنّه قرأ هذه الآية: ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُفۡتَرِينَ﴾ قال: هي واللّه لكلّ مفترٍ إلى يوم القيامة، وقال سفيان بن عيينة: كلّ صاحب بدعةٍ ذليلٌ»[1].

أي أن هذا الأمر ليس بخاصية لهم، فكل مفترٍ يتجاوز حده فوق ما شرعه الله لا بد أن يناله هذا الجزاء؛ لأن ربنا حين يقول لنا ما حدث في تاريخهم؛ وحين يسرد لنا هذه القصة فإنه يريد من وراء ذلك سبحانه أن يعتبر السامع للقصة في نفسه، واعتبار السامع للقصة في نفسه لا يتأتى إلا بأن يقول له الله تنبيهًا وتحذيرًا: ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُفۡتَرِينَ﴾ أي: احذر أن تكون مثل هؤلاء فينالك ما نالهم، وهو سبحانه ينبه كلًّا لينتفع من هذه العبرة وهذه اللقطة؛ فإنّ التاريخ مسرود لأخذ العبرة والعظة ليتعظ بها السامع[2].

وما تقدم أمثلة لمواطن من كتاب الله مما جاء فيها الجزاء السيئ في الدنيا وأهله وهناك غيرها، ومنها: جزاء البغاة[3]، وجزاء المكذبين بآيات الله[4]، وجزاء الكافرين[5].

(١) تفسير القرآن العظيم ٣/ ٤٧٧، ٤٧٨.
(٢) تفسير الشعراوي ٧/ ٤٣٦٨.
(٣) انظر: سورة الأنعام ١٤٦.
(٤) انظر: سورة البقرة ٨٥.
(٥) انظر: سورة البقرة ١٩١، وسورة التوبة ٢٦، وسورة القمر ١٤، وسورة سبأ ١٧.

ثالثًا: الحدود والكفارات والقصاص:

لو أننا تناولنا بالدراسة النظام العقابي في التشريع الإسلامي فلا مناص من أن نميز فيه مرتبتين مختلفتين: فهناك الجزاءات التي حددها الشرع بدقة وصرامة، وهي التي تسمى بـ(الحدود) وهناك جزاءات أخرى تسمى (التعزيرات) وهي متروكة لتقدير القاضي.

فالمرتبة الأولى تتكفل بمجازاة عدد قليل من الجرائم، هي الحرابة والسرقة وشرب الخمر والزنا والقذف، أما الجرائم الأخرى فتتبع المرتبة الثانية.

صحيح أن لأصحاب الحق ألا يلاحقوا المجرم أمام القضاء، سواء بأن يعفوا عن عمله العدواني عفوًا تامًّا، أو بأن يصطلحوا متراضين معه، وحينئذٍ لا يكون للجزاء الشرعي مجال.

ولكن متى صارت الجريمة عامة، أعني متى اتصلت بعلم السلطة المختصة، فإن أصحاب الحق يكونون بذلك قد تنازلوا عن حقهم، وبذلك يصبح الجزاء في هذه الحالة ألبتة من شأن الصالح العام، ويجب أن يطبق بلا هوادة أو رأفة.

إن الصرامة في هذا الصدد لا تجعل مجالًا أمام أي تنازل أو حل وسط، ولا شك أننا نعرف قصة السرقة التي ارتكبتها امرأة تنتمي إلى طبقة الأشراف العربية، والتي

أعلن النبي صلى الله عليه وسلم بمناسبتها، وفي كلمات بلغت غاية القوة مبدأ مساواة الجميع أمام الشرع، فحين تشفع لديه في هذا لموضوع واحد من خيرة أصحابه، قام وخطب في الناس هذه الخطبة القصيرة: **(أيها الناس، إنما أضل من قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد، وايم الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطع محمد يدها)**[1].

وهذه حالة أخرى تزيدنا علمًا: ذلك أن صفوان بن أمية حين أجاب دعوة النبي صلى الله عليه وسلم التي أمر به المسلمين المضطهدين خارج المدينة أن يجيئوا ليستقروا في هذه العاصمة الإسلامية، وقيل له: إنه إن لم يهاجر هلك، غادر مكة، مسقط رأسه، وجاء ليستقر بجوار قائده الروحي، وما كاد يصل حتى رغب في أن يستريح في المسجد هنيهة، فنام في المسجد، وتوسد رداءه، فجاء سارق فأخذ رداءه، فأخذ صفوان السارق فجاء به إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأمر به رسول الله صلى الله عليه وسلم أن تقطع يده، فقال له صفوان: إني لم أرد هذا يا رسول الله، هو عليه صدقة، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **(فهلا قبل أن تأتيني به)**[2].

وهكذا نجد أن العفو عن هذا النوع من الأخطاء غير صحيح إلا إذا كان في المجال الخاص، فمتى علمت السلطة العامة بالجريمة يصبح تطبيق الجزاء (الحد) أمرًا جازمًا لا رجعة فيه، وقد ورد بذلك نص آخر عن النبي صلى الله عليه وسلم هو قوله: **(تعافوا الحدود بينكم، فما بلغني من حد فقد وجب)**[3].

فالسرقة -إذن- تحتم في الشريعة الإسلامية قطع يد السارق، بنص القرآن: ﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓاْ أَيْدِيَهُمَا﴾ [المائدة: ٣٨].

والحرابة عقوبتها إما الموت وإما تقطيع الأيدي والأرجل وإما النفي: ﴿إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسْعَوْنَ فِي ٱلْأَرْضِ

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب أحاديث الأنبياء، باب حديث الغار، رقم ٣٤٧٥، ومسلم في صحيحه، كتاب الحدود، باب قطع السّارق الشّريف وغيره، والنّهي عن الشّفاعة في الحدود، رقم ١٦٨٨.

(٢) أخرجه مالك في الموطأ، كتاب الحدود، باب ترك الشّفاعة للسّارق إذا بلغ السّلطان، ٢/ ٨٣٤، وأحمد في المسند، ٢٤/ ١٥، رقم ١٥٣٠٣.
وصححه الألباني في إرواء الغليل، ٧/ ٣٤٥، رقم ٢٣١٧.

(٣) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الحدود، باب العفو عن الحدود ما لم تبلغ السّلطان، رقم ٤٣٧٦، والنسائي في سننه، كتاب قطع السّارق، باب ما يكون حرزًا وما لا يكون، ٨/ ٧٠.
وحسنه الألباني في صحيح الجامع ١/ ٥٦٨، رقم ٢٩٥٤.

﴿فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓا۟ أَوْ يُصَلَّبُوٓا۟ أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلَٰفٍ أَوْ يُنفَوْا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ﴾[المائدة: ٣٣].

والعقوبة المنصوص عليها في القرآن للزاني هي مائة جلدة: ﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِى فَٱجْلِدُوا۟ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِا۟ئَةَ جَلْدَةٍ﴾[النور: ٢].

ولكن يجب أن نضيف إلى هذه العقوبة تبعًا للأحاديث: «تغريب عام».

وعلى أية حال فإن عقوبة الموت يجب أن تستبعد من هذا المجال إذا ما التزمنا حرفية النص القرآني الذي ذكرناه آنفًا، والذي لا يفرق بين المحصن وغير المحصن، أي: بين البكر والمتزوج، ولكن المأثور عن النبي صلى الله عليه وسلم وصحابته قد أثبت هذا الفرق، وبمقتضاه يستحق الأشخاص المحصنون الذين تثبت عليهم جريمة الزنا عقوبة الموت كأشنع ما يكون.

ولنذكر أن تعبير القرآن -مع ذلك- يبدو أنه يفتح الباب لهذا الإجراء على أنه غاية التطور التشريعي في هذا الموضوع، والواقع أن الجزاء المنصوص في القرآن بالنسبة إلى النسوة الزانيات كان في البداية الحبس: ﴿حَتَّىٰ يَتَوَفَّىٰهُنَّ ٱلْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ ٱللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا﴾[النساء: ١٥].

وبدلًا من أن يفرض هذه السبيل جاء النص النبوي اللاحق وهو قوله صلى الله عليه وسلم مبينًا لها: (خذوا عني، فقد جعل الله لهن سبيلًا: الثيب بالثيب، والبكر بالبكر، الثيب جلد مائة، ثم رجم بالحجارة، والبكر جلد مائة، ثم نفي سنة)[(١)].

وأخيرًا: نجد أن القاذف يستحق تقريبًا نفس العقوبة ما دام قد افترى على الآخرين كذبًا، واستحل لحمهم، فله ثمانون جلدة بدلًا من مائة: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا۟ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجْلِدُوهُمْ ثَمَٰنِينَ جَلْدَةً﴾[النور: ٤][(٢)].

وقال تعالى عن عقوبة القتل الخطأ: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَـًٔا ۚ وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَـًٔا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَصَّدَّقُوا۟ ۚ فَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ عَدُوٍّ لَّكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ ۖ وَإِن كَانَ مِن قَوْمٍۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ فَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ ۖ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾[النساء: ٩٢].

هذه الصيغة من صيغ الامتناع، أي: يمتنع ويستحيل أن يصدر من مؤمن قتل مؤمن، أي: متعمدًا، وفي هذا الإخبار بشدة تحريمه وأنه منافٍ للإيمان أشد منافاة، وإنما يصدر ذلك إما من كافر أو من فاسق قد نقص إيمانه

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الحدود، باب حدّ الزّنا، رقم ١٦٩٠.

(٢) دستور الأخلاق في القرآن، محمد بن عبد الله دراز ص٢٦٢- ٢٦٥.

نقصًا عظيمًا، ويخشى عليه ما هو أكبر من ذلك، فإن الإيمان الصحيح يمنع المؤمن من قتل أخيه الذي قد عقد الله بينه وبينه الأخوة الإيمانية التي من مقتضاها محبته وموالاته، وإزالة ما يعرض لأخيه من الأذى، وأي أذى أشد من القتل؟ وهذا يصدقه قوله صلى الله عليه وسلم: (لا ترجعوا بعدي كفارًا يضرب بعضكم رقاب بعض)[1]، فعلم أن القتل من الكفر العملي وأكبر الكبائر بعد الشرك بالله؛ ولما كان قوله: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا﴾ لفظًا عامًّا لجميع الأحوال، وأنه لا يصدر منه قتل أخيه بوجه من الوجوه، استثنى تعالى قتل الخطأ فقال: ﴿إِلَّا خَطَـًٔا﴾ فإن المخطئ الذي لا يقصد القتل غير آثم، ولا مجترئ على محارم الله، ولكنه لما كان قد فعل فعلًا شنيعًا وصورته كافية في قبحه، وإن لم يقصده؛ أمر تعالى بالكفارة والدية، فقال: ﴿وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَـًٔا﴾ سواء كان القاتل ذكرًا أو أنثى، حرًّا أو عبدًا، صغيرًا أو كبيرًا، عاقلًا أو مجنونًا، مسلمًا أو كافرًا، كما يفيده لفظ (من) الدال على العموم، وهذا من أسرار الإتيان بـ(من) في هذا الموضع، فإن سياق الكلام يقتضي أن يقول: فإن قتله، ولكن هذا لفظ لا يشمل ما تشمله (من) وسواء كان المقتول ذكرًا أو أنثى، صغيرًا أو كبيرًا، كما يفيده التنكير في سياق الشرط، فإن على القاتل ﴿فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ﴾ كفارة لذلك، تكون في ماله، ويشمل ذلك الصغير والكبير، والذكر والأنثى، والصحيح والمعيب، في قول بعض العلماء.

ولكن الحكمة تقتضي أن لا يجزئ عتق المعيب في الكفارة؛ لأن المقصود بالعتق نفع العتيق، وملكه منافع نفسه، فإذا كان يضيع بعتقه، وبقاؤه في الرق أنفع له فإنه لا يجزئ عتقه، مع أن في قوله: ﴿فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ﴾ ما يدل على ذلك؛ فإن التحرير: تخليص من استحقت منافعه لغيره أن تكون له، فإذا لم يكن فيه منافع لم يتصور وجود التحرير، فتأمل ذلك فإنه واضح.

وأما الدية فإنها تجب على عاقلة القاتل في الخطأ وشبه العمد ﴿مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦٓ﴾ جبرًا لقلوبهم، والمراد بأهله هنا هم ورثته، فإن الورثة يرثون ما ترك الميت، فالدية داخلة فيما ترك وللدية تفاصيل كثيرة مذكورة في كتب الفقه.

وقوله: ﴿إِلَّآ أَن يَصَّدَّقُوا۟﴾ أي: يتصدق ورثة القتيل بالعفو عن الدية، فإنها تسقط، وفي ذلك حث لهم على العفو؛ لأن الله سماها صدقة، والصدقة مطلوبة في كل وقت ﴿فَإِن كَانَ﴾ المقتول ﴿مِن قَوْمٍ

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب العلم، باب الإنصات للعلماء، رقم ١٢١، ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب لا ترجعوا بعدي كفارًا يضرب بعضكم رقاب بعضٍ، رقم ٦٥.

﴿عَدُوٍّ لَّكُمْ﴾ أي: من كفار حربيين ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ﴾ أي: وليس عليكم لأهله دية لعدم احترامهم في دمائهم وأموالهم.

﴿وَإِن كَانَ﴾ المقتول ﴿مِن قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ فَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰ أَهْلِهِ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ﴾ وذلك لاحترام أهله بما لهم من العهد والميثاق.

﴿فَمَن لَّمْ يَجِدْ﴾ الرقبة ولا ثمنها بأن كان معسرًا بذلك، ليس عنده ما يفضل عن مؤنته وحوائجه الأصلية شيء يفي بالرقبة ﴿فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ﴾ أي: لا يفطر بينهما من غير عذر، فإن أفطر لعذر فإن العذر لا يقطع التتابع، كالمرض والحيض ونحوهما، وإن كان لغير عذر انقطع التتابع ووجب عليه استئناف الصوم.

﴿تَوْبَةً مِّنَ اللَّهِ﴾ أي: هذه الكفارات التي أوجبها الله على القاتل توبة من الله على عباده ورحمة بهم، وتكفير لما عساه أن يحصل منهم من تقصير وعدم احتراز، كما هو واقع كثيرًا للقاتل خطأ.

﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ أي: كامل العلم كامل الحكمة، لا يخفى عليه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء، ولا أصغر من ذلك ولا أكبر، في أي وقت كان وأي محل كان.

ولا يخرج عن حكمته من المخلوقات والشرائع شيء، بل كل ما خلقه وشرعه فهو متضمن لغاية الحكمة، ومن علمه وحكمته أن أوجب على القاتل كفارة مناسبة لما صدر منه، فإنه تسبب لإعدام نفس محترمة، وأخرجها من الوجود إلى العدم، فناسب أن يعتق رقبة ويخرجها من رق العبودية للخلق إلى الحرية التامة، فإن لم يجد هذه الرقبة صام شهرين متتابعين، فأخرج نفسه من رق الشهوات واللذات الحسية القاطعة للعبد عن سعادته الأبدية إلى التعبد لله تعالى بتركها تقربًا إلى الله، ومدها تعالى بهذه المدة الكثيرة الشاقة في عددها ووجوب التتابع فيها، ولم يشرع الإطعام في هذا الموضع لعدم المناسبة، بخلاف الظهار، ومن حكمته أن أوجب في القتل الدية ولو كان خطأ لتكون رادعة وكافة عن كثير من القتل باستعمال الأسباب العاصمة عن ذلك، ومن حكمته أن وجبت على العاقلة في قتل الخطأ بإجماع العلماء؛ لكون القاتل لم يذنب فيشق عليه أن يحمل هذه الدية الباهظة، فناسب أن يقوم بذلك من بينه وبينهم المعاونة والمناصرة والمساعدة على تحصيل المصالح وكف المفاسد، ولعل ذلك من أسباب منعهم لمن يعقلون عنه من القتل حذرًا من تحميلهم، ويخف عنهم بسبب توزيعه عليهم بقدر أحوالهم وطاقتهم، وخففت أيضًا بتأجيلها عليهم

ثلاث سنين، ومن حكمته وعلمه أن جبر أهل القتيل عن مصيبتهم بالدية التي أوجبها على أولياء القاتل[1].

وأما عقوبة القتل العمد: فذكر تعالى وعيده وعيدًا ترجف له القلوب، وتنصدع له الأفئدة، وتنزعج منه أولو العقول، فقال تعالى: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٩٣].

ولم يرد في أنواع الكبائر أعظم من هذا الوعيد بل ولا مثله، ألا وهو الإخبار بأن جزاءه جهنم، أي: فهذا الذنب العظيم قد انتهض وحده أن يجازى صاحبه بجهنم، بما فيها من العذاب العظيم، والخزي المهين، وسخط الجبار، وفوات الفوز والفلاح، وحصول الخيبة والخسار، فعياذًا بالله من كل سبب يبعد عن رحمته.

وهذا الوعيد له حكم أمثاله من نصوص الوعيد على بعض الكبائر والمعاصي بالخلود في النار، أو حرمان الجنة.

وقد اختلف الأئمة رحمهم الله في تأويلها مع اتفاقهم على بطلان قول الخوارج والمعتزلة الذين يخلدونهم في النار ولو كانوا موحدين.

والصواب في تأويلها ما قاله الإمام المحقق شمس الدين ابن القيم رحمه الله في «المدارج»[2] فإنه قال -بعد ما ذكر تأويلات الأئمة في ذلك وانتقدها فقال-: «وقالت فرقة: هذه النصوص وأمثالها مما ذكر فيه المقتضي للعقوبة ولا يلزم من وجود مقتضي الحكم وجوده، فإن الحكم إنما يتم بوجود مقتضيه وانتفاء موانعه.

وغاية هذه النصوص الإعلام بأن كذا سبب للعقوبة ومقتضٍ لها، وقد قام الدليل على ذكر الموانع فبعضها بالإجماع، وبعضها بالنص، فالتوبة مانع بالإجماع، والتوحيد مانع بالنصوص المتواترة التي لا مدفع لها، والحسنات العظيمة الماحية مانعة، والمصائب الكبار المكفرة مانعة، وإقامة الحدود في الدنيا مانع بالنص، ولا سبيل إلى تعطيل هذه النصوص فلا بد من إعمال النصوص من الجانبين.

ومن هنا قامت الموازنة بين الحسنات والسيئات اعتبارًا بمقتضي العقاب ومانعه، وإعمالًا لأرجحها.

قالوا: وعلى هذا بناء مصالح الدارين ومفاسدهما، وعلى هذا بناء الأحكام الشرعية والأحكام القدرية، وهو مقتضى الحكمة السارية في الوجود، وبه ارتباط الأسباب ومسبباتها خلقًا وأمرًا، وقد جعل الله سبحانه لكل ضد ضدًّا يدافعه ويقاومه،

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص١٩٢.

(٢) مدارج السالكين ١/ ٣٩٦.

ويكون الحكم للأغلب منهما.

فالقوة مقتضية للصحة والعافية، وفساد الأخلاط وبغيها مانع من عمل الطبيعة، وفعل القوة والحكم للغالب منهما، وكذلك قوى الأدوية والأمراض، والعبد يكون فيه مقتضٍ للصحة ومقتض للعطب، وأحدهما يمنع كمال تأثير الآخر ويقاومه، فإذا ترجح عليه وقهره كان التأثير له.

ومن هنا يعلم انقسام الخلق إلى من يدخل الجنة ولا يدخل النار وعكسه، ومن يدخل النار ثم يخرج منها، ويكون مكثه فيها بحسب ما فيه من مقتضى المكث في سرعة الخروج وبطئه، ومن له بصيرة منورة يرى بها كل ما أخبر الله به في كتابه من أمر المعاد وتفاصيله، حتى كأنه يشاهده رأي عين، ويعلم أن هذا هو مقتضى إلهيته سبحانه وربوبيته وعزته وحكمته، وأنه يستحيل عليه خلاف ذلك، ونسبة ذلك إليه نسبة ما لا يليق به إليه، فيكون نسبة ذلك إلى بصيرته كنسبة الشمس والنجوم إلى بصره.

وهذا يقين الإيمان، وهو الذي يحرق السيئات كما تحرق النار الحطب، وصاحب هذا المقام من الإيمان يستحيل إصراره على السيئات، وإن وقعت منه وكثرت، فإن ما معه من نور الإيمان يأمره بتجديد التوبة كل وقت بالرجوع إلى الله في عدد أنفاسه، وهذا من أحب الخلق إلى الله».

وقال تعالى عن عقوبة الصيد في الحرم: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقۡتُلُواْ ٱلصَّيۡدَ وَأَنتُمۡ حُرُمٞۚ وَمَن قَتَلَهُۥ مِنكُم مُّتَعَمِّدٗا فَجَزَآءٞ مِّثۡلُ مَا قَتَلَ مِنَ ٱلنَّعَمِ يَحۡكُمُ بِهِۦ ذَوَا عَدۡلٖ مِّنكُمۡ هَدۡيَۢا بَٰلِغَ ٱلۡكَعۡبَةِ أَوۡ كَفَّٰرَةٞ طَعَامُ مَسَٰكِينَ أَوۡ عَدۡلُ ذَٰلِكَ صِيَامٗا لِّيَذُوقَ وَبَالَ أَمۡرِهِۦۗ عَفَا ٱللَّهُ عَمَّا سَلَفَۚ وَمَنۡ عَادَ فَيَنتَقِمُ ٱللَّهُ مِنۡهُۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٞ ذُو ٱنتِقَامٖ﴾ [المائدة: ٩٥].

أي: ومن قتل شيئًا من الصّيد وهو محرمٌ قاصدٌ لقتله، فجزاؤه أو فعليه جزاءٌ من الأنعام مماثلٌ لما قتله في هيئته وصورته إن وجد، وإلّا ففي قيمته[(١)].

وادعى بعض أهل العلم الإجماع على أنّ الحدود كفّاراتٌ لمن أقيمت عليه[(٢)]، وقال القاضي عياضٌ: «ذهب أكثر العلماء أنّ الحدود كفّاراتٌ»[(٣)]، وتوقف بعض العلماء في كون الحدود كفارات ولم يقضوا في ذلك بشيء[(٤)].

ومن الآيات الصريحة في أن يوقع على الجاني مثل ما جنى -النّفس بالنّفس والجرح بالجرح- (القصاص):

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِصَاصُ فِي ٱلۡقَتۡلَىۖ ٱلۡحُرُّ بِٱلۡحُرِّ وَٱلۡعَبۡدُ بِٱلۡعَبۡدِ وَٱلۡأُنثَىٰ بِٱلۡأُنثَىٰۚ فَمَنۡ عُفِيَ لَهُۥ مِنۡ أَخِيهِ

(١) المنار، محمد رشيد رضا ٧/ ٨٦، تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٢٤٤.
(٢) سبل السلام، الصنعاني ٢/ ٤٢٦.
(٣) فتح الباري، ابن حجر ١/ ٦٦.
(٤) مرعاة المفاتيح، المباركفوري ١/ ٧٩.

شَيْءٌ فَٱتِّبَاعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ وَأَدَآءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَٰنٍ ذَٰلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [البقرة: ١٧٨].

يمتن تعالى على عباده المؤمنين بأنه فرض عليهم ﴿ٱلْقِصَاصُ فِى ٱلْقَتْلَى﴾ أي: المساواة فيه، وأن يقتل القاتل على الصفة، التي قتل عليها المقتول إقامة للعدل والقسط بين العباد.

وتوجيه الخطاب لعموم المؤمنين فيه دليل على أنه يجب عليهم كلهم، حتى أولياء القاتل، حتى القاتل بنفسه؛ إعانة ولي المقتول إذا طلب القصاص وتمكينه من القاتل، وأنه لا يجوز لهم أن يحولوا بين هذا الحد، ويمنعوا الولي من الاقتصاص، كما عليه عادة الجاهلية ومن أشبههم من إيواء المحدثين، ثم بيّن تفصيل ذلك[1].

فالعدل في القصاص -أيّها المؤمنون- حرّكم بحرّكم، وعبدكم بعبدكم، وأنثاكم بأنثاكم، ولا تتجاوزوا وتعتدوا، كما اعتدى من قبلكم وغيّروا حكم اللّه فيهم[2].

وليس الهدف من القصاص الانتقام ولا إرواء الأحقاد، إنما هو أجلّ من ذلك وأعلى إنه للحياة، وفي سبيل الحياة، بل هو في ذاته حياة، ثم إنه للتعقل والتدبر في حكمة الفريضة، ولاستحياء القلوب واستجاشتها لتقوى الله.

قال تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِى ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٧٩].

والحياة التي في القصاص تنبثق من كف الجناة عن الاعتداء ساعة الابتداء، فالذي يوقن أنه يدفع حياته ثمنًا لحياة من يقتل جدير به أن يتروى ويفكر ويتردد، كما تنبثق من شفاء صدور أولياء الدم عند وقوع القتل بالفعل، شفائها من الحقد والرغبة في الثأر، الثأر الذي لم يكن يقف عند حد في القبائل العربية حتى لتدوم معاركه المتقطعة أربعين عامًا، كما في حرب البسوس المعروفة عندهم، وكما نرى نحن في واقع حياتنا اليوم، حيث تسيل الحياة على مذابح الأحقاد العائلية جيلًا بعد جيل، ولا تكف عن المسيل.

وفي القصاص حياة على معناها الأشمل الأعم، فالاعتداء على حياة فرد اعتداء على الحياة كلها، واعتداء على كل إنسان حي، يشترك مع القتيل في سمة الحياة، فإذا كف القصاص الجاني عن إزهاق حياة واحدة فقد كفه عن الاعتداء على الحياة كلها، وكان في هذا الكف حياة، حياة مطلقة، لا حياة فرد، ولا حياة أسرة، ولا حياة جماعة.

ثم -وهو الأهم والعامل المؤثر الأول في حفظ الحياة- استجاشة شعور التدبر

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٨٤.
(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١/ ٤٨٩.

لحكمة الله، ولتقواه: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾.

فهذا هو الرباط الذي يعقل النفوس عن الاعتداء، الاعتداء بالقتل ابتداء، والاعتداء في الثأر أخيرًا[1].

قال ابن كثير: «قوله: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ﴾ يقول تعالى: وفي شرع القصاص لكم -وهو قتل القاتل- حكمةٌ عظيمةٌ لكم، وهي بقاء المهج وصونها؛ لأنّه إذا علم القاتل أنّه يقتل انكفّ عن صنيعه، فكان في ذلك حياة النّفوس، وفي الكتب المتقدّمة: القتل أنفى للقتل، فجاءت هذه العبارة في القرآن أفصح وأبلغ وأوجز[2].

قال أبو العالية: «جعل اللّه القصاص حياةً، فكم من رجلٍ يريد أن يقتل فتمنعه مخافة أن يقتل».

وكذا روي عن مجاهدٍ، وسعيد بن جبيرٍ، وأبي مالكٍ، والحسن، وقتادة، والرّبيع بن أنسٍ، ومقاتل بن حيّان.

﴿يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ يقول: يا أولي العقول والأفهام والنّهى، لعلّكم تنزجرون فتتركون محارم اللّه ومآثمه، والتّقوى: اسمٌ جامعٌ لفعل الطّاعات، وترك المنكرات»[3].

وقال تعالى: ﴿الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ١٩٤].

ذكر تعالى هذه القاعدة حجّةً لوجوب مقاصّة المشركين على انتهاك الشّهر الحرام بمقابلتهم بالمثل؛ ليكون شهرٌ بشهرٍ جزاءً وفاقًا.

وفي جملة: ﴿وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ﴾ من الإيجاز ما ترى حسنه وإبداعه.

ثمّ صرّح بالأمر بالاعتداء على المعتدي مع مراعاة المماثلة -وإن كان يفهم ممّا قبله- لمكان كراهتهم للقتال في الحرم والشّهر الحرام فقال تفريعًا على القاعدة وتأييدًا للحكم: ﴿فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ﴾ وإنّما يتحقّق هذا فيما تتأتى فيه المماثلة، وسمّى الجزاء اعتداءً للمشاكلة، وقد استدلّ الإمام الشّافعيّ بالآية على وجوب قتل القاتل بمثل ما قتل به بأن يذبح إذا ذبح، ويخنق إذا خنق، ويغرق إذا أغرق، وهكذا، وقال مثل ذلك في الغصب والإتلاف، والقصد أن يكون الجزاء على قدر الاعتداء بلا حيفٍ ولا ظلمٍ، وأزيد على هذا ما هو أولى بالمقام، وهو المماثلة في قتال الأعداء كقتل المجرمين بلا ضعفٍ ولا تقصيرٍ، فالمقاتل بالمدافع والقذائف النّاريّة أو الغازية السّامّة يجب أن يقاتل بها، وإلّا فاتت الحكمة لشرعيّة القتال وهي منع الظّلم

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب ١/ ١٦٥.
(٢) انظر: البرهان، الزركشي ٣/ ٢٢٢، الإتقان في علوم القرآن، السيوطي، ٣/ ١٨٥.
(٣) تفسير القرآن العظيم ١/ ٤٩٢.

والعدوان، والفتنة والاضطهاد، وتقرير الحرّيّة والأمان، والعدل والإحسان، وهذه الشّروط والآداب لا توجد إلّا في الإسلام؛ ولذلك قال تعالى بعد شرح القصاص والمماثلة: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ فلا تعتدوا على أحدٍ، ولا تبغوا ولا تظلموا في القصاص بأن تزيدوا في الإيذاء، وأكّد الأمر بالتّقوى بما بيّن من مزيّتها وفائدتها فقال: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ بالمعونة والتّأييد، فإنّ المتّقي هو صاحب الحقّ وبقاؤه هو الأصلح، والعاقبة له في كلّ ما ينازعه به الباطل؛ لأنّ من أصول التّقوى اتّقاء جميع أسباب الفشل والخذلان[1].

وقال الشعراوي: «قوله الحق: ﴿وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ﴾ يقتضي منا أن نسأل: كيف يكون ذلك؟ وما هو الشيء الحرام؟

إن الشيء الحرام هو ما يحظر هتكه، والشيء الحلال هو المطلق والمأذون فيه، فهل يعني ذلك أن الذي يقوم بعمل حرام نقتص منه بعمل مماثل؟ هل إذا زنى رجل بامرأة نقول له: نقتص منك بالزنا فيك؟ لا.

إن القصاص في الحرمات لا يكون إلا في المأذون به؛ وكذلك إذا سرق مني إنسان مالًا وليس لدي بينة، لكني مقتنع بأنه هو الذي سرق هل أقتص منه بأن أسرق منه؟ لا، إن القصاص إنما يكون في الأمر المعروف الواضح، أما الأمر المختفي فلا يمكن أن نقتص منه بمثل ما فعل، لكن هب أن أحد الأقارب ممّن تجب نفقتهم عليك وامتنعت أنت عن النفقة على هذا الإنسان، وهذا أمر محرم عليك، وما دام الأمر علنيًّا فله أن يأخذ من مالك فيأكل، وتكون المسألة قصاصًا»[2].

وقال تعالى: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ ﴿١٢٦﴾ وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٧﴾ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ﴾ [النحل: ١٢٦-١٢٨].

قال الرازي: «اعلم أنّه تعالى أمر برعاية العدل والإنصاف في هذه الآية ورتّب ذلك على أربع مراتب:

المرتبة الأولى: قوله: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ﴾ يعني إن رغبتم في استيفاء القصاص فاقنعوا بالمثل ولا تزيدوا عليه، فإنّ استيفاء الزّيادة ظلمٌ والظّلم ممنوعٌ منه في عدل اللّه ورحمته، وفي قوله: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ﴾ دليلٌ على أنّ الأولى له أن لا يفعل، كما أنّك إذا قلت للمريض: إن كنت تأكل الفاكهة فكل التّفّاح، كان معناه أنّ

(١) المنار، محمد رشيد رضا ٢/ ١٧١.

(٢) تفسير الشعراوي ٢/ ٨٢٩.

الأولى بك أن لا تأكله، فذكر تعالى بطريق الرّمز والتّعريض على أنّ الأولى تركه.

والمرتبة الثّانية: الانتقال من التّعريض إلى التّصريح وهو قوله: ﴿وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّـٰبِرِينَ﴾ وهذا تصريحٌ بأنّ الأولى ترك ذلك الانتقام؛ لأنّ الرّحمة أفضل من القسوة، والإنفاع أفضل من الإيلام.

المرتبة الثّالثة: وهو ورود الأمر بالجزم بالتّرك وهو قوله: ﴿وَٱصْبِرْ﴾ لأنّه في المرتبة الثّانية ذكر أنّ التّرك خيرٌ وأولى، وفي هذه المرتبة الثّالثة صرّح بالأمر بالصّبر؛ ولمّا كان الصّبر في هذا المقام شاقًّا شديدًا ذكر بعده ما يفيد سهولته فقال: ﴿وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾ أي: بتوفيقه ومعونته، وهذا هو السّبب الكلّيّ الأصليّ المفيد في حصول الصّبر، وفي حصول جميع أنواع الطّاعات؛ ولمّا ذكر هذا السّبب الكلّيّ الأصليّ ذكر بعده ما هو السّبب الجزئيّ القريب، فقال: ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾ وذلك لأنّ إقدام الإنسان على الانتقام، وعلى إنزال الضّرر بالغير لا يكون إلّا عند هيجان الغضب.

المرتبة الرّابعة: قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾ وهذا يجري مجرى التّهديد؛ لأنّ في المرتبة الأولى رغّب في ترك الانتقام على سبيل الرّمز، وفي المرتبة الثّانية عدل عن الرّمز إلى التّصريح وهو قوله: ﴿وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّـٰبِرِينَ﴾ وفي المرتبة الثّالثة أمرنا بالصّبر على سبيل الجزم، وفي هذه المرتبة الرّابعة كأنّه ذكر الوعيد في فعل الانتقام فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ﴾ عن استيفاء الزّيادة: ﴿وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾ في ترك أصل الانتقام، فإن أردت أن أكون معك فكن من المتّقين ومن المحسنين، ومن وقف على هذا التّرتيب عرف أنّ الأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر يجب أن يكون على سبيل الرّفق واللّطف مرتبةً فمرتبةً، ولمّا قال اللّه لرسوله: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ﴾[النحل: ١٢٥].

ذكر هذه المراتب الأربعة تنبيهًا على أنّ الدّعوة بالحكمة والموعظة الحسنة يجب أن تكون واقعةً على هذا الوجه، وعند الوقوف على هذه اللّطائف يعلم العاقل أنّ هذا الكتاب الكريم بحرٌ لا ساحل له»[1].

وقال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِۦ ثُمَّ بُغِىَ عَلَيْهِ لَيَنصُرَنَّهُ ٱللَّهُ إِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ﴾ [الحج: ٦٠].

وقال تعالى: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ [الشورى: ٤٠].

هذه الآية أصلٌ كبيرٌ في علم الفقه

(١) مفاتيح الغيب، الرازي ٢٠/ ٢٨٩.
وانظر: السراج المنير، الشربيني ٢/ ٢٧٢.

فإنّ مقتضاها أن تقابل كلّ جنايةٍ بمثلها؛ وذلك لأنّ الإهدار يوجب فتح باب الشّرّ والعدوان؛ لأنّ في طبع كلّ أحدٍ الظّلم والبغي والعدوان، فإذا لم يزجر عنه أقدم عليه ولم يتركه، وأمّا الزّيادة على قدر الذّنب فهو ظلمٌ والشّرع منزّهٌ عنه، فلم يبق إلّا أن يقابل بالمثل، ثمّ تأكّد هذا النّصّ بنصوصٍ أخر، كقوله تعالى: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ ۖ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّٰبِرِينَ﴾ [النحل: ١٢٦].

وقوله تعالى: ﴿مَّنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا﴾ [غافر: ٤٠].

وقوله عز وجل: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِصَاصُ فِى ٱلْقَتْلَى﴾ [البقرة: ١٧٨].

والقصاص عبارةٌ عن المساواة والمماثلة، وقوله تعالى: ﴿وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌ﴾ [المائدة: ٤٥].

وقوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِى ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ﴾ [البقرة: ١٧٩].

فهذه النّصوص بأسرها تقتضي مقابلة الشيء بمثله، ثم ها هنا دقيقةٌ: وهي أنّه إذا لم يمكن استيفاء الحقّ إلّا باستيفاء الزّيادة فها هنا وقع التّعارض بين إلحاق زيادة الضّرر بالجاني، وبين منع المجنيّ عليه من استيفاء حقّه، فأيّهما أولى؟ فها هنا محلّ اجتهاد المجتهدين، ويختلف ذلك باختلاف الصّور، وتفرّع على هذا الأصل بعض المسائل تنبيهًا على الباقي[1].

قال ابن كثير: «قوله تعالى: ﴿وَجَزَٰٓؤُا۟ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾ [الشورى: ٤٠].

كقوله تعالى: ﴿فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُوا۟ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ [البقرة: ١٩٤].

وكقوله: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ ۖ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّٰبِرِينَ﴾ [النحل: ١٢٦].

فشرع العدل وهو القصاص، وندب إلى الفضل وهو العفو، كقوله تعالى: ﴿وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌ ۚ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُۥ﴾ [المائدة: ٤٥].

ولهذا قال هاهنا: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ۚ﴾ [الشورى: ٤٠].

أي: لا يضيع ذلك عند اللّه، كما صحّ في الحديث: (وما زاد اللّه عبدًا بعفوٍ إلّا عزًّا)[2].

وقوله: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الشورى: ٤٠].

أي: المعتدين، وهو المبتدئ بالسّيّئة.

وقال بعضهم: لمّا كانت الأقسام ثلاثةً: ظالمٌ لنفسه ومقتصدٌ وسابقٌ بالخيرات ذكر الأقسام الثّلاثة في هذه الآية، فذكر المقتصد وهو الّذي يفيض بقدر حقّه لقوله:

(١) مفاتيح الغيب، الرازي ٢٧/ ٦٠٥.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب البرّ والصّلة والآداب، باب استحباب العفو والتّواضع، رقم ٢٥٨٨.

﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَاۖ﴾ ثمّ ذكر السّابق بقوله: ﴿فَمَنۡ عَفَا وَأَصۡلَحَ فَأَجۡرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِۚ﴾ ثمّ ذكر الظّالم بقوله: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ فأمر بالعدل، وندب إلى الفضل، ونهى من الظّلم»[1].

رابعًا: أهل الجزاء الحسن في الآخرة وصور منه:

قال تعالى: ﴿وَقِيلَ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ مَاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمۡۚ قَالُواْ خَيۡرٗاۗ لِّلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٞۚ وَلَدَارُ ٱلۡأٓخِرَةِ خَيۡرٞۚ وَلَنِعۡمَ دَارُ ٱلۡمُتَّقِينَ﴾ [النحل: ٣٠].

أخبر تعالى بأنّ دار الآخرة خيرٌ، أي: من الحياة الدّنيا، والجزاء فيها أتمّ من الجزاء في الدّنيا، كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ وَيۡلَكُمۡ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيۡرٞ﴾ [القصص: ٨٠].

وقال تعالى: ﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيۡرٞ لِّلۡأَبۡرَارِ﴾ [آل عمران: ١٩٨].

وقال تعالى: ﴿بَلۡ تُؤۡثِرُونَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا ١٦ وَٱلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰٓ﴾ [الأعلى: ١٦-١٧].

وقال لرسوله صلى الله عليه وسلم: ﴿وَلَلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ لَّكَ مِنَ ٱلۡأُولَىٰ﴾ [الضحى: ٤][2].

وكرّر جلّ وعلا هذا المعنى في مواضع كثيرة، كقوله: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلۡبَنِينَ وَٱلۡقَنَٰطِيرِ ٱلۡمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلۡفِضَّةِ وَٱلۡخَيۡلِ ٱلۡمُسَوَّمَةِ وَٱلۡأَنۡعَٰمِ وَٱلۡحَرۡثِۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسۡنُ ٱلۡمَـَٔابِ ١٤ قُلۡ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيۡرٖ مِّن ذَٰلِكُمۡۚ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ عِندَ رَبِّهِمۡ جَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَأَزۡوَٰجٞ مُّطَهَّرَةٞ وَرِضۡوَٰنٞ مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِٱلۡعِبَادِ﴾ [آل عمران: ١٤-١٥][3].

وذكر جلّ وعلا في هذه الآية الكريمة أنّ من أحسن عمله في هذه الدّار الّتي هي الدّنيا كان له عند اللّه الجزاء الحسن في الآخرة.

وأوضح تعالى هذا المعنى في آياتٍ كثيرةٍ:

كقوله تعالى: ﴿لِلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ ٱلۡحُسۡنَىٰ وَزِيَادَةٞۖ وَلَا يَرۡهَقُ وُجُوهَهُمۡ قَتَرٞ وَلَا ذِلَّةٌۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [يونس: ٢٦].

والحسنى: الجنّة، والزّيادة: النّظر إلى وجه اللّه الكريم.

وقوله تعالى: ﴿وَيَجۡزِيَ ٱلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ بِٱلۡحُسۡنَىٰٓ﴾ [النجم: ٣١].

وقوله: ﴿هَلۡ جَزَآءُ ٱلۡإِحۡسَٰنِ إِلَّا ٱلۡإِحۡسَٰنُ﴾ [الرحمن: ٦٠].

وقوله تعالى: ﴿مَن جَآءَ بِٱلۡحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيۡرٞ مِّنۡهَا﴾ [القصص: ٨٤].

أي: مجازاةٌ حسنةٌ بالجنّة ونعيمها[4].

وقوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ

(١) تفسير القرآن العظيم ٧/ ٢١١.
(٢) المصدر السابق ٤/ ٥٦٨.
(٣) أضواء البيان، الشنقيطي ٢/ ٣٧٠.
(٤) المصدر السابق.

﴿ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ﴾ [القصص: ٨٠]. أي: جزاء اللّه لعباده المؤمنين الصّالحين في الدّار الآخرة خيرٌ ممّا ترون.

كما في الحديث الصّحيح: (يقول اللّه تعالى: أعددت لعبادي الصّالحين ما لا عينٌ رأت، ولا أذنٌ سمعت، ولا خطر على قلب بشرٍ، واقرؤوا إن شئتم: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [السجدة: ١٧])[(١)].

وقوله: ﴿وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ﴾ قال السّدّيّ: «وما يلقّى الجنّة إلّا الصّابرون»[(٢)].

ومن صور الجزاء الحسن في الآخرة:

قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا﴾ [الكهف: ٨٨].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ مَن يَأْتِ رَبَّهُۥ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴿٧٤﴾ وَمَن يَأْتِهِۦ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلْعُلَىٰ﴾ [طه: ٧٤-٧٥].

وقوله تعالى: ﴿قُلْ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ ٱلْخُلْدِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ كَانَتْ لَهُمْ جَزَآءً وَمَصِيرًا ﴿١٥﴾ لَّهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ خَٰلِدِينَ ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعْدًا مَّسْـُٔولًا﴾ [الفرقان: ١٥-١٦].

قال ابن كثير: «يقول تعالى: يا محمّد هذا الّذي وصفناه من حال أولئك الأشقياء الّذين يحشرون على وجوههم إلى جهنّم، فتتلقّاهم بوجوهٍ عبوسٍ وبغيظٍ وزفيرٍ، ويلقون في أماكنها الضّيّقة مقرّنين، لا يستطيعون حراكًا، ولا انتصارًا ولا فكاكًا ممّا هم فيه: أهذا خيرٌ أم جنّة الخلد الّتي وعدها اللّه المتّقين من عباده الّتي أعدّها لهم، وجعلها لهم جزاءً على ما أطاعوه في الدّنيا، وجعل مآلهم إليها.

﴿لَّهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ﴾ أي: من الملاذّ من مآكل ومشارب، وملابس ومساكن، ومراكب ومناظر، وغير ذلك، ممّا لا عينٌ رأت، ولا أذنٌ سمعت، ولا خطر على قلب أحدٍ، وهم في ذلك خالدون أبدًا دائمًا سرمدًا بلا انقطاع ولا زوال، ولا انقضاءٍ، لا يبغون عنها حولًا، وهذا من وعد اللّه الّذي تفضّل به عليهم، وأحسن به إليهم، ولهذا قال: ﴿كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعْدًا مَّسْـُٔولًا﴾ أي: لا بدّ أن يقع وأن يكون، كما حكاه أبو جعفر بن جريرٍ، عن بعض علماء العربيّة أنّ معنى قوله: ﴿وَعْدًا مَّسْـُٔولًا﴾ أي: وعدًا واجبًا»[(٣)].

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب بدء الخلق، باب ما جاء في صفة الجنّة وأنّها مخلوقةٌ، رقم ٣٢٤٤، ومسلم في صحيحه، كتاب الجنّة وصفة نعيمها وأهلها، رقم ٢٨٢٤.

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦/ ٢٥٥.

(٣) المصدر السابق ٦/ ٩٨.

وقوله تعالى: ﴿جَزَآؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُۥ﴾ [البينة: ٨].

وقوله تعالى: ﴿لِلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ [الرعد: ١٨].

قال ابن كثير: «يخبر تعالى عن مآل السّعداء والأشقياء فقال: ﴿لِلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمُ﴾ أي: أطاعوا اللّه ورسوله، وانقادوا لأوامره، وصدّقوا أخباره الماضية والآتية، فلهم ﴿ٱلْحُسْنَىٰ﴾ وهو الجزاء الحسن، كما قال تعالى مخبرًا عن ذي القرنين أنّه قال: ﴿قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُۥ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨٧﴾ وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُۥ جَزَآءَ ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا﴾ [الكهف: ٨٧-٨٨].

وقال تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦]»[(١)].

خامسًا: أهل الجزاء السيئ في الآخرة وصور منه:

لا تنتظر أن يوفّ أهل الجزاء السيئ جزاء عملهم السّيّئ كلّه في هذه الدّار، كما أنّ أجرك على عملك لا توفّاه في هذه الحياة، فحسبك ما أصبت من الجزاء الحسن، وحسبهم ما أصيبوا، وما يصابون به من الجزاء السّيّئ في الدّنيا.

واعلم أنّه لا يوفّى أحدٌ جزاءه في هذه الدّار لأنّ توفية الأجور إنّما تكون في الآخرة، كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [آل عمران: ١٨٥][(٢)].

ومن صور الجزاء السيئ في الآخرة:

قوله تعالى: ﴿كَمَثَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَٰنِ ٱكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ فَكَانَ عَٰقِبَتَهُمَآ أَنَّهُمَا فِى ٱلنَّارِ خَٰلِدَيْنِ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الحشر: ١٦-١٧].

وقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا۟ وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى كُلَّ كَفُورٍ﴾ [فاطر: ٣٦].

شرع تعالى في بيان مآل الأشقياء، فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا۟﴾ كما قال تعالى: ﴿لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ﴾ [طه: ٧٤].

وثبت في صحيح مسلم أنّ رسول اللّه صلى الله عليه وسلم قال: **(أمّا أهل النّار الّذين هم أهلها فلا يموتون فيها ولا يحيون)**[(٣)]. قال الله تعالى: ﴿وَنَادَوْا۟ يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ ۖ قَالَ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ﴾ [الزخرف:

(١) تفسير القرآن العظيم ٤/ ٤٤٩.

(٢) المنار، محمد رشيد رضا ٤/ ٢٢١.

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، يدخل الله أهل الجنة الجنة يدخل من يشاء برحمته، رقم ١٨٥.

٧٧].

فهم في حالهم ذلك يرون موتهم راحةً لهم، ولكن لا سبيل إلى ذلك، قال الله تعالى: ﴿لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا۟ وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا﴾ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى عَذَابِ جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ﴾ [الزخرف: ٧٤-٧٥].

وقال: ﴿كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَٰهُمْ سَعِيرًا﴾ [الإسراء: ٩٧].

﴿فَذُوقُوا۟ فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا﴾ [النبأ: ٣٠].

ثمّ قال: ﴿كَذَٰلِكَ نَجْزِى كُلَّ كَفُورٍ﴾ أي: هذا جزاء كلّ من كفر بربّه وكذّب بالحقّ[(١)].

وقوله تعالى: ﴿فَلَنُذِيقَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَذَابًا شَدِيدًا وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [فصلت: ٢٧].

أي: بشرّ أعمالهم وسيّئ أفعالهم، وهو الكفر والمعاصي، فإنها أسوأ ما كانوا يعملون؛ لكونهم يعملون المعاصي وغيرها، فالجزاء بالعقوبة، إنما هو على عمل الشرك ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٩][(٢)].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُوا۟ عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ [الأعراف: ٤٠].

وقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ جَزَآءُ أَعْدَآءِ ٱللَّهِ ٱلنَّارُ ۖ لَهُمْ فِيهَا دَارُ ٱلْخُلْدِ ۖ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ﴾ [فصلت: ٢٨].

وقوله تعالى: ﴿أَوْ تَقُولُوا۟ لَوْ أَنَّآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْكِتَٰبُ لَكُنَّآ أَهْدَىٰ مِنْهُمْ ۚ فَقَدْ جَآءَكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ ۚ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا ۗ سَنَجْزِى ٱلَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ ءَايَٰتِنَا سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْدِفُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٧].

الاستفهام هنا إنكاريٌّ، أي: وإذا كانت آيات الله مشتملةً على ما ذكر من البيّنة الكاملة والهداية الشّاملة والرّحمة الخاصّة والعامّة؛ فلا أحد أظلم ممّن كذّب بها وأعرض عنها، ولم يكتف بصدوفه عنها وحرمان نفسه منها، بل صدف النّاس، أي صرفهم وردّهم أيضًا[(٣)].

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦/ ٥٥٢.

(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٧/ ١٧٤، تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٧٤٨.

(٣) المنار، محمد رشيد رضا ٨/ ١٨٢.

قواعد في الجزاء

أولًا: الجزاء من جنس العمل:

قال ابن القيم: «قد فطر اللّه سبحانه عباده على أنّ حكم النّظير حكم نظيره، وحكم الشّيء حكم مثله، وعلى إنكار التّفريق بين المتماثلين، وعلى إنكار الجمع بين المختلفين، والعقل والميزان الّذي أنزله اللّه سبحانه شرعًا وقدرًا يأبى ذلك؛ ولذلك كان الجزاء مماثلًا للعمل من جنسه في الخير والشّرّ...، فهذا شرع اللّه وقدره ووحيه وثوابه وعقابه كلّه قائمٌ بهذا الأصل، وهو إلحاق النّظير بالنّظير، واعتبار المثل بالمثل؛ ولهذا يذكر الشّارع العلل والأوصاف المؤثّرة والمعاني المعتبرة في الأحكام القدريّة والشّرعيّة والجزائيّة»(١).

ومن الآيات التي تحقق فيها معنى الجزاء من جنس العمل:

قوله تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ ۖ فَإِن فَآءُو فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٢٦﴾ وَإِنْ عَزَمُوا الطَّلَاقَ فَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٢٦-٢٢٧].

قال ابن القيم: «حتم حكم الفيء الذي هو الرجوع والعود إلى رضى الزوجة والإحسان إليها بأنه غفور رحيم، يعود على عبده بمغفرته ورحمته إذا رجع إليه، والجزاء من جنس العمل، فكما رجع العبد إلى التي هي أحسن رجع الله إليه بالمغفرة والرحمة: ﴿وَإِنْ عَزَمُوا الطَّلَاقَ فَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ فإن الطلاق لما كان لفظًا يسمع، ومعنى يقصد عقبه باسم «السميع» لما نطق به «العليم» بمضمونه»(٢).

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ۖ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٠٨﴾ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا ۚ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِندَ اللَّهِ ۚ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٩﴾ وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الأنعام: ١٠٨-١١٠].

قال ابن القيم: «هذا عطف على قوله: ﴿أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ أي: نحول بينهم وبين الإيمان ولو جاءتهم تلك الآية فلا يؤمنون.

واختلف في قوله: ﴿كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ فقال كثير من المفسرين: المعنى نحول بينهم وبين الإيمان لو جاءتهم الآية، كما حلنا بينهم وبين الإيمان أول مرة، قال ابن عباس: في رواية عطاء عنه: ونقلب أفئدتهم وأبصارهم حتى يرجعوا إلى ما سبق عليهم من علمي، قال: وهذا كقوله:

(١) إعلام الموقعين، ١/ ١٥٠.

(٢) التفسير القيم، ابن القيم ص١٤٩.

﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ﴾ [الأنفال: ٢٤].

وقال آخرون: المعنى: ونقلب أفئدتهم وأبصارهم لتركهم الإيمان به أول مرة، فعاقبناهم بتقليب أفئدتهم وأبصارهم، وهذا معنى حسن، فإن كاف التشبيه تتضمن نوعًا من التعليل، كقوله: ﴿وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ﴾ [القصص: ٧٧].

وقوله: ﴿كَمَآ أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُواْ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ ﴿١٥١﴾ فَٱذْكُرُونِيٓ أَذْكُرْكُمْ﴾ [البقرة: ١٥١-١٥٢].

والذي حسن اجتماع التعليل والتشبيه الإعلام بأن الجزاء من جنس العمل في الخير والشر»[1].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [الأعراف: ٥٦].

قال ابن القيم: «فيه تنبيه ظاهر على أن فعل هذا المأمور به هو الإحسان المطلوب منكم، ومطلوبكم أنتم من الله هو رحمته القريبة من المحسنين، الذين فعلوا ما أمروا به من دعائه خوفًا وطمعًا، فقرب مطلوبكم منكم -وهو الرحمة- بحسب أدائكم لمطلوبه منكم، وهو الإحسان الذي هو في الحقيقة إحسان إلى أنفسكم.

﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ [الحديد: ٢٤].

﴿إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ﴾ [الإسراء: ٧].

وقوله: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ له دلالة بمنطوقه ودلالة بإيمائه وتعليله ودلالة بمفهومه، فدلالته بمنطوقه على قرب الرحمة من أهل الإحسان، ودلالته بتعليله وإيمائه على أن هذا القرب مستحق بالإحسان فهو السبب في قرب الرحمة منهم، ودلالته بمفهومه على بعد الرحمة من غير المحسنين، فهذه ثلاث دلالات لهذه الجملة، وإنما اختص أهل الإحسان بقرب الرحمة منهم لأنها إحسان من الله أرحم الراحمين، وإحسانه تعالى إنما يكون لأهل الإحسان؛ لأن الجزاء من جنس العمل، فكما أحسنوا بأعمالهم أحسن إليهم برحمته، وأما من لم يكن من أهل الإحسان فإنه لما بعد عن الإحسان بعدت عنه الرحمة بعدًا ببعد وقربًا بقرب، فمن تقرب بالإحسان تقرب الله إليه برحمته ومن تباعد عن الإحسان تباعد الله عنه برحمته، والله سبحانه يحب المحسنين، ويبغض من ليس من المحسنين، ومن أحبه الله فرحمته أقرب شيء منه، ومن أبغضه فرحمته أبعد شيء منه، والإحسان ها هنا هو

(١) المصدر السابق ص٢٤٢.

فعل المأمور به، سواء كان إحسانًا إلى الناس أو إلى نفسه»[1].

وقوله تعالى: ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا﴾[البقرة: ١٠].

قال عبد الرّحمن بن زيد بن أسلم: «﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ قال: هذا مرضٌ في الدّين، وليس مرضًا في الأجساد، وهم المنافقون، والمرض: الشّكّ الّذي دخلهم في الإسلام ﴿فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا﴾ قال: زادهم رجسًا، وقرأ: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ﴾ [التوبة: ١٢٤-١٢٥].

قال: شرًّا إلى شرّهم، وضلالةً إلى ضلالتهم».

قال ابن كثير: «وهذا الّذي قاله عبد الرّحمن رحمه الله حسنٌ، وهو الجزاء من جنس العمل؛ وكذلك قاله الأوّلون، وهو نظير قوله تعالى أيضًا: ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ﴾ [محمد: ١٧]»[2].

وقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ [الأعراف: ١٦٥].

قال ابن كثير: «أي: فلمّا أبى الفاعلون المنكر قبول النّصيحة ﴿أَنجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ أي: ارتكبوا المعصية ﴿بِعَذَابٍ بَئِيسٍ﴾ فنصّ على نجاة النّاهين، وهلاك الظّالمين، وسكت عن السّاكتين؛ لأنّ الجزاء من جنس العمل، فهم لا يستحقّون مدحًا فيمدحوا، ولا ارتكبوا عظيمًا فيذمّوا»[3].

وقوله تعالى: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [السجدة: ١٧].

قال ابن كثير: «أي: فلا يعلم أحدٌ عظمة ما أخفى اللّه لهم في الجنّات من النّعيم المقيم، واللّذّات الّتي لم يطّلع على مثلها أحدٌ، لمّا أخفوا أعمالهم أخفى اللّه لهم من الثّواب، جزاءً وفاقًا؛ فإنّ الجزاء من جنس العمل»[4].

ومن الآيات الصريحة في هذا المعنى:

قوله تعالى: ﴿فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ﴾ [التوبة: ٧٩][5].

وقوله تعالى: ﴿قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ الْيَوْمَ تُنسَىٰ﴾ [طه: ١٢٦][6].

وقوله تعالى: ﴿فَالْيَوْمَ نَنسَاهُمْ كَمَا

(١) التفسير القيم، ابن القيم ص٢٦٦.
وانظر: المنار، محمد رشيد رضا ٨/ ٤١٠.
(٢) تفسير القرآن العظيم، ١/ ١٧٩.
(٣) تفسير القرآن العظيم، ٣/ ٤٩٤.
وانظر: محاسن التأويل القاسمي ٥/ ٢١٣.
(٤) تفسير القرآن العظيم، ٦/ ٣٦٥.
(٥) انظر: المصدر السابق ٤/ ١٨٨.
(٦) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٥/ ٣٢٤، محاسن التأويل، القاسمي ٧/ ١٦٤، تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٥١٦.

﴿نَسُوا۟ لِقَآءَ يَوْمِهِمْ هَٰذَا﴾ [الأعراف: ٥١][1].

وقوله تعالى: ﴿وَقِيلَ ٱلْيَوْمَ نَنسَىٰكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا﴾ [الجاثية: ٣٤][2].

وقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تَنصُرُوا۟ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ [محمد: ٧][3].

وقوله تعالى: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ﴾ [الحج: ٤٠][4].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ﴾ [النساء: ١٤٢][5].

ثانيًا: الجزاء بمقدار العمل:

العدل في الجزاء غاية من غايات الخلق والإعادة، قال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ بِٱلْقِسْطِ ۚ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ﴾ [يونس: ٤][6].

وقوله تعالى: ﴿وَجَزَٰٓؤُا۟ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾ [الشورى: ٤٠].

فيه وجوب العدل في الجزاء، وعدم الاعتداء فيه.

قال ابن أبي نجيح والحسن: «لو قال أخزاه الله فيقول له أخزاه الله»[7].

وبين تعالى أن الجزاء بمقدار العمل فقال: ﴿كُلُّ ٱمْرِئٍۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾ [الطور: ٢١].

أي: مرهون.

قال الزمخشري: «كأن نفس العبد رهن عند الله بالعمل الصالح الذي هو مطالب به، كما يرهن الرجل عبده بدين عليه، فإن عمل صالحًا فكها وخلصها وإلا أوبقها»[8].

وقال تعالى: ﴿جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [الواقعة: ٢٤].

أي: هذا الّذي أتحفناهم به مجازاةً لهم على ما أحسنوا من العمل[9]. فكما حسنت منهم الأعمال أحسن الله لهم الجزاء، ووفر لهم الفوز والنعيم[10].

وقال تعالى عن نعيم أهل الجنة: ﴿وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الصافات: ٣٩].

وقد دلّ كتاب الله في جملته وتفصيله على أنّ مدار النّجاة والفلاح على الإيمان والعمل الصّالح ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ ﴿٤٠﴾ ثُمَّ يُجْزَىٰهُ ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ﴾ [النجم: ٣٩-٤١].

﴿لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا تَسْعَىٰ﴾ [طه: ١٥].

---

(١) انظر المنار، محمد رشيد رضا ٨/ ٣٩٢.
(٢) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٧٧٨.
(٣) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٧/ ٣١٠.
(٤) انظر: المصدر السابق.
(٥) انظر المنار، محمد رشيد رضا ١/ ١٢٦.
(٦) في ظلال القرآن، سيد قطب ٣/ ١٧٦٤.
(٧) الإكليل في استنباط التنزيل، السيوطي ص٢٣٠.
(٨) الكشاف ٤/ ٤١١.
وانظر: غرائب القرآن، النيسابوري ٦/ ١٩٤.
(٩) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٧/ ٥٢٤.
(١٠) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٨٣٣.

﴿هَلۡ تُجۡزَوۡنَ إِلَّا مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ [النمل: ٩٠][1].

وقال تعالى: ﴿يَوۡمَ تَأۡتِي كُلُّ نَفۡسٖ تُجَٰدِلُ عَن نَّفۡسِهَا وَتُوَفَّىٰ كُلُّ نَفۡسٖ مَّا عَمِلَتۡ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ﴾ [النحل: ١١١].

﴿يَوۡمَ تَأۡتِي كُلُّ نَفۡسٖ تُجَٰدِلُ عَن نَّفۡسِهَا﴾ كلٌّ يقول: نفسي نفسي، لا يهمه سوى نفسه، ففي ذلك اليوم يفتقر العبد إلى حصول مثقال ذرة من الخير.

﴿وَتُوَفَّىٰ كُلُّ نَفۡسٖ مَّا عَمِلَتۡ﴾ من خير وشر ﴿وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ﴾ فلا يزاد في سيئاتهم ولا ينقص من حسناتهم ﴿فَٱلۡيَوۡمَ لَا تُظۡلَمُ نَفۡسٞ شَيۡـٔٗا وَلَا تُجۡزَوۡنَ إِلَّا مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ [يس: ٥٤][2].

﴿فَٱلۡيَوۡمَ لَا تُظۡلَمُ نَفۡسٞ شَيۡـٔٗا﴾ لا ينقص من حسناتها ولا يزاد في سيئاتها ﴿وَلَا تُجۡزَوۡنَ إِلَّا مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ من خير أو شر، فمن وجد خيرًا فليحمد الله على ذلك، ومن وجد غير ذلك فلا يلومنَّ إلا نفسه[3].

وقال تعالى: ﴿ٱلۡيَوۡمَ تُجۡزَىٰ كُلُّ نَفۡسِۭ بِمَا كَسَبَتۡۚ لَا ظُلۡمَ ٱلۡيَوۡمَۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ﴾ [غافر: ١٧].

قال ابن كثير: «قوله: ﴿ٱلۡيَوۡمَ تُجۡزَىٰ كُلُّ نَفۡسِۭ بِمَا كَسَبَتۡۚ لَا ظُلۡمَ ٱلۡيَوۡمَۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ﴾ يخبر تعالى عن عدله في حكمه بين خلقه أنّه لا يظلم مثقال ذرّةٍ من خيرٍ ولا من شرٍّ، بل يجزي بالحسنة عشر أمثالها، وبالسّيّئة واحدةً؛ ولهذا قال: ﴿لَا ظُلۡمَ ٱلۡيَوۡمَ﴾ كما ثبت في صحيح مسلم[4] عن أبي ذرٍّ رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما يحكي عن ربّه عز وجل أنّه قال: **(يا عبادي إنّي حرّمت الظّلم على نفسي، وجعلته بينكم محرّمًا، فلا تظالموا)** -إلى أن قال-: **(يا عبادي إنّما هي أعمالكم أحصيها عليكم، ثمّ أوفّيكم إيّاها، فمن وجد خيرًا فليحمد الله، ومن وجد غير ذلك فلا يلومنَّ إلا نفسه)**[5].

ولا تعارض بين أن الجزاء بمقدار العمل (العدل في الجزاء) وبين مضاعفة الجزاء:

فالأصل في العدل أن يكون الجزاء السّيّئ على قدر الإساءة وتأثيرها في تدسية نفوس المسيئين، والجزاء الحسن على قدر الإحسان وتأثيره في أرواح المحسنين، ولكنّه تعالى برحمته وفضله يضاعف جزاء الحسنة عشرة أضعافٍ، ويزيد من يشاء ولا يضاعف السّيّئة، والآيات المفصّلة في هذا المعنى كثيرةٌ، وبها يفسّر المجمل[6].

(١) المنار، محمد رشيد رضا ٦/ ٣١١.
(٢) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٤٥٠.
(٣) المصدر السابق ص ٦٩٧.
(٤) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم الظلم، ٤/ ١٩٩٤، رقم ٢٥٧٧.
(٥) تفسير القرآن العظيم ٧/ ١٣٦.
(٦) المنار، محمد رشيد رضا ٣/ ١١٧.

فقوله الحق سبحانه: ﴿يُضَٰعَفُ لَهُمُ ٱلْعَذَابُ﴾[هود: ٢٠].

لا يتناقض مع قوله الحق: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾[الأنعام: ١٦٤].

لأن هؤلاء الذين صدوا عن سبيل الله ليس لهم وزر واحد، بل لهم وزران: وزر الضلال في ذواتهم، ووزر الإضلال لغيرهم[(١)].

وقوله تعالى: ﴿يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [غافر: ٤٠].

بزيادة تفضل؛ لأنه لو كان على مقدار العمل فقط لكان بحسابه[(٢)].

وقال تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ۖ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [يونس: ٢٦].

قال ابن كثير: «يخبر تعالى أنّ لمن أحسن العمل في الدّنيا بالإيمان والعمل الصّالح أبدله الحسنى في الدّار الآخرة، كما قال تعالى: ﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ﴾ [الرحمن: ٦٠].

وقوله: ﴿وَزِيَادَةٌ﴾ هي تضعيف ثواب الأعمال بالحسنة عشر أمثالها إلى سبعمائة ضعفٍ، وزيادةٌ على ذلك أيضًا، ويشمل ما يعطيهم الله في الجنان من القصور والحور والرّضا عنهم، وما أخفاه لهم من قرّة أعينٍ، وأفضل من ذلك وأعلاه النظر إلى وجهه الكريم، فإنّه زيادةٌ أعظم من جميع ما أعطوه، لا يستحقّونها بعملهم، بل بفضله ورحمته، وقد روي تفسير الزّيادة بالنّظر إلى وجه الله الكريم عن أبي بكرٍ الصّدّيق، وحذيفة بن اليمان، وعبد الله بن عبّاسٍ، قال البغويّ: وأبو موسى، وعبادة بن الصّامت، وسعيد بن المسيّب، وعبد الرّحمن بن أبي ليلى، وعبد الرّحمن بن سابطٍ، ومجاهدٌ، وعكرمة، وعامر بن سعدٍ، وعطاءٌ، والضّحّاك، والحسن، وقتادة، والسّدّيّ، ومحمّد بن إسحاق، وغيرهم من السّلف والخلف، وقد وردت في ذلك أحاديث كثيرةٌ عن رسول الله صلى الله عليه وسلم»[(٣)].

وقال تعالى: ﴿وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُم بِٱلَّتِى تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰٓ إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ جَزَآءُ ٱلضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا۟ وَهُمْ فِى ٱلْغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ﴾ [سبأ: ٣٧].

قال ابن كثير: «﴿وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُم بِٱلَّتِى تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰٓ﴾ أي: ليست هذه دليلًا على محبّتنا لكم، ولا اعتنائنا بكم، وفي الحديث أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: **(إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم، ولكن إنّما ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم)**[(٤)].

(١) تفسير الشعراوي ١٠/ ٦٤٠٩.
(٢) تفسير ابن فورك ٢/ ٣٦٠.
(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ٢٦٢.
(٤) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب البرّ والصّلة والآداب، باب تحريم ظلم المسلم، وخذله، واحتقاره ودمه، وعرضه، وماله، رقم ٢٥٦٤.

ولهذا قال: ﴿إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾ أي: إنّما يقرّبكم عندنا زلفى الإيمان والعمل الصّالح ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ جَزَآءُ ٱلضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا۟﴾ أي: تضاعف لهم الحسنة بعشرة أمثالها إلى سبعمائة ضعفٍ ﴿وَهُمْ فِى ٱلْغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ﴾ أي: في منازل الجنّة العالية آمنون من كلّ بأسٍ وخوفٍ وأذًى، ومن كلّ شرٍّ يحذر منه»[1].

ثالثًا: كل نفس تجازى عن نفسها:

عدل الله يقتضي أن يحاسب الإنسان بعمله، وأن يسأل عن نفسه، فلا يرمي أحد ذنبه على أحد، كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ وَٱخْشَوْا۟ يَوْمًا لَّا يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيْـًٔا﴾ [لقمان: ٣٣].

وحول هذه القضية تحدّث كثير من المستشرقين الذين يبحثون في القرآن عن مأخذ، فوقفوا عند هذه الآية: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾[الإسراء: ١٥].

وقالوا: كيف نوفّق بينها وبين قوله: ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ﴾ [العنكبوت: ١٣].

وقوله تعالى: ﴿لِيَحْمِلُوٓا۟ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۙ وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ﴾ [النحل: ٢٥].

ونقول: التوفيق بين الآية الأولى والآيتين الأخيرتين هيّن لو فهموا الفرق بين الوزر في الآية الأولى، والوزر في الآيتين الأخيرتين.

ففي الأولى وزر ذاتيٌّ خاص بالإنسان نفسه، حيث ضلّ هو في نفسه، فيجب أن يتحمّل وزر ضلاله، أما في الآية الثانية فقد أضلّ غيره، فتحمّل وزره الخاص به، وتحمّل وزر من أضلّهم.

ويوضّح لنا هذه القضية الحديث النبوي الشريف: **(من سن في الإسلام سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها بعده من غير أن ينقص من أجورهم شيء، ومن سن في الإسلام سنة سيئة كان عليه وزرها ووزر من عمل بها من بعده من غير أن ينقص من أوزارهم شيء)**[2].

مع الإطماع في الفضل والنعمة والتحذير من اليوم الذي يأتي وصفه: ﴿لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا﴾ [البقرة: ٤٨].

فالتبعة فردية والحساب شخصي، وكل نفس مسؤولة عن نفسها، ولا تغني نفس عن نفس شيئًا.

وهذا هو المبدأ الإسلامي العظيم، مبدأ التبعة الفردية القائمة على الإرادة والتمييز

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦/ ٥٢٢.

(٢) تفسير الشعراوي ١٤/ ٨٤١٧.
والحديث أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الزّكاة، باب الحثّ على الصّدقة ولو بشقّ تمرةٍ، رقم ١٠١٧.

من الإنسان، وعلى العدل المطلق من الله، وهو أقوم المبادئ التي تشعر الإنسان بكرامته، والتي تستجيش اليقظة الدائمة في ضميره، وكلاهما عامل من عوامل التربية فوق أنه قيمة إنسانية تضاف إلى رصيده من القيم التي يكرمه بها الإسلام[1].

قال تعالى: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ [البقرة: ٤٨].

﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئًا﴾ أي: واحذروا يومًا عظيمًا أمامكم سيقع فيه من الحساب والجزاء ما لا منجاة من هوله إلّا بتقوى الله في جميع الأحوال، ومراقبته في جميع الأعمال، فهو يومٌ لا تقضي فيه نفسٌ -مهما يكن قدرها عظيمًا- عن نفسٍ مهما يكن ذنبها صغيرًا شيئًا ما، كحمل وزرها أو تكفير ذنبها ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾ [فاطر: ١٨].

وصف اليوم بهذا الوصف ولم يقل: يوم القيامة مثلًا؛ للإشعار بأنّ التّصرّف في ذلك اليوم والأمر كلّه للّه، فليس فيه ما اعتاد النّاس في هذه الدّنيا من دفاع بعضهم عن بعضٍ، وعبّر عن هذا المعنى في أوّل سورةٍ بقوله: ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ [الفاتحة: ٤].

ثمّ وصفه هنا بوصفٍ آخر يناسب الأوّل فقال: ﴿وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ [البقرة: ٤٨][2].

فلمّا ذكّرهم اللّه تعالى بنعمه أولًا عطف على ذلك التّحذير من حلول نقمه بهم يوم القيامة فقال: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا﴾ يعني: يوم القيامة ﴿لَّا تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئًا﴾ أي: لا يغني أحدٌ عن أحدٍ كما قال: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ [الأنعام: ١٦٤].

وقال: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾ [عبس: ٣٤-٣٧].

وقال: ﴿يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَىٰ وَمَا هُم بِسُكَارَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ﴾ [الحج: ٢].

وقال: ﴿وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾ [فاطر: ١٨].

وقال: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠١].

وقال: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ وَاخْشَوْا يَوْمًا لَّا يَجْزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِ شَيْئًا﴾ [لقمان: ٣٣].

فهذه أبلغ المقامات: أنّ كلًّا من الوالد

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب ١/ ٧٠.

(٢) المنار، محمد رشيد رضا ١/ ٢٥٣.

وولده لا يغني أحدهما عن الآخر شيئًا[1].

وهؤلاء الذين يصدّون عن سبيل الله لن يجدوا وليًّا ولا نصيرًا في الآخرة، وإن وجدوه في الدنيا لأن كل إنسان في الآخرة سيكون مشغولًا بنفسه.

إذن: فهؤلاء الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله لا يعجزون الله في الأرض، ولا يجدون الولي أو النصير في الآخرة[2].

وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰكُم مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ يَوۡمٞ لَّا بَيۡعٞ فِيهِ وَلَا خُلَّةٞ وَلَا شَفَٰعَةٞۚ وَٱلۡكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [البقرة: ٢٥٤].

قال محمد رشيد رضا: «فسّروا فيه البيع بالافتداء وجعلوا فيه الخلّة والشّفاعة على ظاهرهما، أي أنفقوا فإنّ الإنفاق في سبيل الخير والبرّ -وهي سبيل الله- هو الّذي ينجيكم في ذلك اليوم الّذي لا ينجي الأشحّة الباخلين فيه من عذاب الله تعالى فداءٌ فيفتدوا منه أنفسهم، ولا خلّةٌ يحمل فيها خليلٌ شيئًا من أوزار خليله، أو يهبه شيئًا من حسناته، ولا شفاعةٌ يؤثر بها الشّفيع في إرادة الله تعالى، فيحوّلها عن مجازاة الكافر بالنّعمة الباخل بالصّدقة المستحقّ للمقت والعقوبة بتدنيس نفسه وتدسيتها في الدّنيا، وهذا هو الوجه الّذي اختاره الأستاذ الإمام، فالآية بمعنى قوله تعالى في هذه السّورة: ﴿وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا لَّا تَجۡزِي نَفۡسٌ عَن نَّفۡسٖ شَيۡـٔٗا وَلَا يُقۡبَلُ مِنۡهَا شَفَٰعَةٞ وَلَا يُؤۡخَذُ مِنۡهَا عَدۡلٞ وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ﴾ [البقرة: ٤٨].

فقوله: ﴿لَّا تَجۡزِي نَفۡسٌ عَن نَّفۡسٖ شَيۡـٔٗا﴾ بمعنى نفي الخلّة هنا، والعدل: هو الفداء بالعوض، وهو بمعنى البيع المنفيّ هنا، ومثلها آية ﴿وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا لَّا تَجۡزِي نَفۡسٌ عَن نَّفۡسٖ شَيۡـٔٗا وَلَا يُقۡبَلُ مِنۡهَا عَدۡلٞ وَلَا تَنفَعُهَا شَفَٰعَةٞ وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ﴾ [البقرة: ١٢٣]»[3].

وقال تعالى: ﴿قُل لِّعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُنفِقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ سِرّٗا وَعَلَانِيَةٗ مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ يَوۡمٞ لَّا بَيۡعٞ فِيهِ وَلَا خِلَٰلٌ﴾ [إبراهيم: ٣١].

قال ابن كثير: «المراد من هذا أنّه يخبر تعالى أنّه لا ينفع أحدًا بيعٌ ولا فديةٌ، ولو افتدى بملء الأرض ذهبًا لو وجده، ولا ينفعه صداقة أحدٍ ولا شفاعة أحدٍ إذا لقي اللّه كافرًا، قال اللّه تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا لَّا تَجۡزِي نَفۡسٌ عَن نَّفۡسٖ شَيۡـٔٗا وَلَا يُقۡبَلُ مِنۡهَا عَدۡلٞ وَلَا تَنفَعُهَا شَفَٰعَةٞ وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ﴾ [البقرة: ١٢٣].

وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰكُم مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ يَوۡمٞ لَّا بَيۡعٞ فِيهِ وَلَا خُلَّةٞ وَلَا شَفَٰعَةٞۚ وَٱلۡكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [البقرة: ٢٥٤]»[4].

---

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١/ ٢٥٦، ٨/ ٢٢٥، تفسير الشعراوي ١٠/ ٦٤٠٨.

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١/ ٤٠٤.

(٣) تفسير المنار ٣/ ١٥.

(٤) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ٥١٠.

وقال تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ [فاطر: ١٨].

أي: لا تحمل نفسٌ عن نفسٍ شيئًا، بل كلٌّ مطالبٌ بأمر نفسه(١).

وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ وَٱخْشَوْا۟ يَوْمًا لَّا يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ﴾ [لقمان: ٣٣].

أمر تعالى الناس بتقواه التي هي امتثال أوامره، وترك زواجره، ويستلفتهم لخشية يوم القيامة اليوم الشديد الذي فيه كل أحد لا يهمه إلا نفسه فـ﴿لَّا يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيْـًٔا﴾ لا يزيد في حسناته ولا ينقص من سيئاته، قد تم على كل عبد عمله، وتحقق عليه جزاؤه.

فلفت النظر في هذا لهذا اليوم المهيل مما يقوي العبد ويسهّل عليه تقوى الله، وهذا من رحمة الله بالعباد، يأمرهم بتقواه التي فيها سعادتهم، ويعدهم عليها الثواب، ويحذرهم من العقاب، ويزعجهم إليه بالمواعظ والمخوفات، فلك الحمد يا رب العالمين.

﴿إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾ فلا تمتروا فيه، ولا تعملوا عمل غير المصدق، فلهذا قال: ﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾ بزينتها وزخارفها وما فيها من الفتن والمحن ﴿وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ﴾ الذي هو الشيطان الذي ما زال يخدع الإنسان ولا يغفل عنه في جميع الأوقات، فإن لله على عباده حقًّا، وقد وعدهم موعدًا يجازيهم فيه بأعمالهم، وهل وفوا حقه أم قصروا فيه؟!

وهذا أمر يجب الاهتمام به، وأن يجعله العبد نصب عينيه، ورأس مال تجارته التي يسعى إليها(٢).

قال ابن كثير: «يقول تعالى منذرًا للنّاس يوم المعاد، وآمرًا لهم بتقواه والخوف منه، والخشية من يوم القيامة حيث ﴿لَّا يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ﴾ أي: لو أراد أن يفديه بنفسه لما قبل منه، وكذلك الولد لو أراد فداء والده بنفسه لم يتقبّل منه.

ثمّ عاد بالموعظة عليهم بقوله: ﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾ أي: لا تلهينّكم بالطّمأنينة فيها عن الدّار الآخرة ﴿وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ﴾ يعني: الشّيطان»(٣).

موضوعات ذات صلة:

الثواب، الجنة، الحساب، العمل، الكسب، النار

(١) المصدر السابق ٧/ ٨٧.

(٢) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٦٥٢.

(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦/ ٣٥١.